



هل نهب العثمانيون المكتبات الوقفية في الولايات العربية؟!

رؤية أخرى في قضية تاريخية مهمة

تقديم وترجمة
د. أحمد عبد الله نجم

د. إسماعيل أرونصال

الأستاذ بقسم اللغات الشرقية كلية الآداب جامعة عين شمس





مقدمة المترجم:

عرّف ابن خلدون التاريخ بقوله: «إنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال»^١.

ولكي يتمكن المؤرخ من الإطلاقة على ذلك التاريخ الذي لم يصنعه ولم يشاهد ما وقع فيه من أحداث لماس حياة الإنسان بالأساس في شتى مناحيها المختلفة الاجتماعية والثقافية والسياسية والفكرية والاقتصادية في سعيه لعمران العالم كما ذكر ابن خلدون لابد له من نوافذ معرفية روائية ومادية يمكن إن أحسن قراءتها والتعاطي أن تساعد على تشكيل فسيفساء تلك الجدارية الضخمة التي تسمى التاريخ.

وتمثل الوثائق والمصادر الخاصة بتاريخ دولة معينة أحد أهم وسائل ذلك التناغم وكلما زاد هذا التراث المصادري لفترة زمنية معينة أو منطقة جغرافية بعينها كلما انفتحت أمام دارس التاريخ آفاق أرحب ونافذة أوسع تحمله من مجرد مشاهدة هذا التاريخ إلى المشاركة في كتابته.

وفي هذا الإطار تأتي ترجمة هذه الدراسة لتقدم رؤية أخرى جديدة يطرحها أحد أصحاب الشأن وهو المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور إسماعيل ارونصال تحت عنوان: «هل نهب العثمانيون المكتبات الوقفية في الولايات العربية؟!» والصادرة في عام ٢٠١٤م والتي هي بالأساس محاولة لتفنيد ونقض اتهام حضاري - إن جاز التعبير - مضي عليه ما يزيد على الخمسة قرون من خلال الوثائق والمصادر المكتوبة باللغة التركية. ولعل هذه الدراسة التي يقدمها أحد أهم المؤرخين في تركيا تكون قد نجحت في الإجابة على هذا السؤال / الاتهام أو حاولت على أقل تقدير. وهي في كلتا الحالتين تقدم رؤية جديدة يمكن التعاطي معها ومناقشتها أو حتى رفضها وذلك في إطار علمي يتسم بالحيادة والتجرد للحقيقة التاريخية المتخلصة من قيود النظرة القومية الضيقة التي يمكن أن تكبل مثل تلك الدراسات في التاريخ العثماني. ولعلها تؤثر إلى أمر أوسع يقوم على ضرورة الاستفادة من المصادر التركية المختلفة والتعاطي معها في مثل تلك الدراسات التي تشكل جزءاً من تاريخنا. ومثل هذه القراءة الناقدة المتحاورّة إذا نجحت في توظيف تلك المصادر فإنها قد تساعد على تجسير وتقريب المسافة بين المشتغلين بهذه الفترة من تاريخ مصر والمتمثلة في الحقبة العثمانية، وبين تلك النافذة المعرفية المتمثلة في الوثائق والمصادر العثمانية التي قد تساعد على إضاءة جوانب أخرى من تاريخ تلك الحقبة الزمنية. وهذا قد يضيف جديداً إلى تلك الدراسات التي تتعلق بتاريخ مصر في فترته العثمانية، وتمكن الدارس من النظر بشكل مختلف إلى بعض القضايا التي أصبحت من المسلمات في ذلك التاريخ.

١ عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء الأول المعروف بمقدمة ابن خلدون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٢٩.



ويمكن القول بقدر من اليقين إن هذه الدراسة الرائدة التي نقدم ترجمتها كانت في طليعة دراسات أخرى عربية في الاتجاه نفسه جاءت بعدها^٢ تنظر إلى الفترة العثمانية بغير النظرة المتحيزة التي صبغت أعمال ودراسات تتعلق بالدولة العثمانية في سنوات سابقة. وختامًا فإن الدراسات الخاصة بتاريخ مصر في الفترة العثمانية قد أصبحت تمثل جزءًا أصيلاً في حركة التأريخ العام في مصر يتأكد وجوده يوماً بعد يوم وتوسع آفاقه عن طريق تعدد المجالات والموضوعات التي بدأ في تناولها. ولكن هذه الدراسات تحتاج بطبيعة الحال إلى معرفة ودراية باللغة التركية في شقيها القديم والحديث التي كتبت بها المصادر والمراجع الخاصة بتاريخ الدولة العثمانية. والتي قد تطرح وجهة نظر مختلفة في شتى قضايا ذلك التاريخ. وهذا ما سعت تلك الترجمة لتقديمه عبر محاولة نقض إحدى السرديات التي توافقت الدراسات التاريخية على ترديدها أو تغيير النظرة إليها على أقل تقدير، وهو ما قد يساعد على استكمال فسيفساء الحكم العثماني لمصر في جوانبه المختلفة. والله تعالى من وراء القصد.

د. أحمد عبدالله نجم

٢ مثال ذلك كتاب أحمد الشمسي الأستاذ المشارك في جامعة شيكاغو تحت عنوان: «إعادة اكتشاف التراث الإسلامي، كيف غيرت ثقافة الطباعة والتحقيق عالمنا الفكري؟» (مطبعة جامعة برنستون عام ٢٠٢٠م). وقد ترجم الدكتوران عبد الغني ميموني وأحمد العدوي الكتاب وصدر عن مركز نهوض للدراسات والأبحاث (بيروت عام ٢٠٢٢م). ودراسة تيلمان زايدنشتيكر: كيف انتقلت المخطوطات العربية إلى المكتبات الألمانية؟ التي نقله إلى العربية: أحمد عبد الباسط (مجلة علوم المخطوط، مكتبة الإسكندرية، العدد الثاني ٢٠١٩م).



الترجمة العربية: هل نهب العثمانيون المكتبات الوقفية في الولايات العربية؟!

يوجد ادعاء لدى جميع الباحثين العرب -تقريبًا- المشتغلين بالمخطوطات، يتكرر باستمرار عند حديثهم عن ثراء مكتبات إسطنبول بالمخطوطات، مفاده أن السلطان سليم الأول (١٥١٢: ١٥٢٠ م) -ومن كان معه من أركان الدولة- قد نهبوا مكتبات الوقف التي كانت في المدن التي ضمها العثمانيون، مثل: القاهرة وحلب، وأنهم قد نقلوا الكتب التي كانت تضمها تلك المكتبات إلى إسطنبول، وأن هذا الوضع استمر في عهد السلاطين العثمانيين الآخرين، وأن العثمانيين استمروا في جلب الكتب التي كانت في مكتبات تلك البلاد إلى إسطنبول. ويرى أصحاب هذا الادعاء أن ذلك كان السبب في قلة عدد المخطوطات في المكتبات الموجودة في البلدان العربية اليوم. فمن أين نشأ هذا الادعاء الذي يكرره الباحثون العرب المهتمون بموضوع المخطوطات مرارًا؟ وإلى أي مدى يستند إلى حقيقة تاريخية؟

إن أهم مصدر يستند إليه أصحاب هذا النوع من الادعاءات يتمثل في عدة أسطر وردت في كتاب المؤرخ ابن إياس (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، في القسم الذي تحدث فيه عن حال القاهرة بعد دخول العثمانيين. وأصبحت تلك الأسطر من أهم مصادر تلك الادعاءات فيما يتعلق بهذا الموضوع. وقد جاءت هذه الأسطر في معرض حديث ابن إياس عن وقائع شهر شوال من عام ٩٢٣هـ / إبريل ١٥١٧م، حيث تحدث عن النهب الذي كان يحدث في مدينة القاهرة، فقال: «ثم إن الوزراء استدرجوا لأخذ الكتب النفيسة التي في المدرسة المحمودية والمؤيدية والصرغتمشية، وغير ذلك من المدارس التي فيها الكتب النفيسة، فنقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها ولم يعرفوا الحرام من الحلال في ذلك»^٤.

وانطلاقًا من هذه العبارات التي ذكرها ابن إياس لم يكتف كثير من الباحثين بالقول إن المخطوطات الموجودة في المكتبات المصرية قد أُحضرت إلى إسطنبول؛ بل ذكروا أن المخطوطات الموجودة في مكتبات جميع المناطق العربية قد نُهبت هي الأخرى على يد العثمانيين. حتى إن بعض الباحثين ذكروا أن الكتب التي نهبها العثمانيون قد حُمِلت على ألف بعير، استنادًا إلى ما ذكره ابن إياس في موضع آخر من كتابه عندما قال: «وأشيع أن ابن عثمان خرج من مصر وصحبته ألف بعير محملة ما بين ذهب وفضة، هذا خارجًا عما غنمه من التحف والسلاح والصيني والنحاس المكفت والخيول والبغال والجمال وغير ذلك، حتى نقل منها الرخام الفاخر وأخذ منها من كل شيء أحسنه»^٥.

وفي مقابل ذلك نجد أن المؤرخ المصري محمد بن أبي سرور البكري الصديقي (ت ١٦٦١م) -الذي

3 " Fethedilen Arap Ülkelerindeki Vakıf Kütüphaneleri Osmanlılar Tarafından Yağmalandı mı?" İsmail E. Erünsal, Osmanlı Araştırmaları/ The Journal of Ottoman Studies, XLIII (2014).

٤ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ج ٥، القاهرة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ١٧٩.

٥ المرجع السابق، ص ٢٥٧.

عاش في القرن السابع عشر - لم يُشر أبدًا إلى موضوع الكتب عندما عدّ الأشياء التي غنمها سليم الأول ورجاله ونقلوها من مصر^٦.

وقبل كل شيء يجب أن نسأل: إلى أي مدى يمكن الوثوق بابن إياس، الذي كان هو المصدر الرئيس لمثل تلك الادّعاءات، وهل كان محايدًا تجاه العثمانيين؟ فكتاب ابن إياس عدّ مصدرًا مهمًا للتأريخ للفترة الأخيرة من عهد المماليك وانتقال الحكم إلى العثمانيين. ولكن يوجد اتفاق بين الباحثين على أن ابن إياس - بسبب انتسابه إلى عائلة مملوكية - لم تكن نظرته إلى العثمانيين موضوعية، وأنه لم يكن محايدًا في نقل الأحداث التي وقعت، وكانت له آراء سلبية تجاه السلطان سليم الأول بشكل عام^٧.

ولفهم ما أورده ابن إياس فهمًا متوازنًا إلى حد بعيد، فمن المفيد فحص مواقف العثمانيين وإعادة النظر فيها فيما يتعلق بالكتب الموقوفة والمكتبات في المناطق التي فتحوها. وبحسب ما نعلمه من المصادر والممارسات التي جرت، فإن الممتلكات الموقوفة لم تُمسّ في المناطق التي فتحها العثمانيون^٨. وقد بُذلت جهود كبيرة من أجل حماية مجموعات المكتبات، وأُخذت التدابير اللازمة لضمان عمل هذه المكتبات بشكل منتظم، كما أُعدت فهارس للمؤلفات والكتب الموجودة في تلك المجموعات، ولم تُنقل أي مكتبة كانت موجودة في أراضي الإمارات التي فتحها العثمانيون إلى إسطنبول، بل أُخذت الترتيبات اللازمة للحفاظ عليها في أماكنها.

فعلى سبيل المثال عندما استولى العثمانيون على مدينة قونية، التي كانت مركزًا علميًا وعرفانيًا في عهد سلاجقة الأناضول، لم تُمس المكتبات الموجودة في المدارس، مثل: آلتون آبا^٩، وصاحب عطا^{١٠}، وقره

٦ شيخ الإسلام والإمام الهمام المؤرخ المصري الشيخ محمد أبي سرور البكري الصديقي: نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان، تهامة، سالم أبو جابر، أكاديمية القاسمي، ٢٠١٢م، ص ١٦٧.

7 Reem Meshal: "Antagonistic Sharī'as and the Construction of Orthodoxy in Sixteenth- Century Ottoman Cairo", *Journal of Islamic Studies*, c. 21/2, Oxford 2010, s. 190; Feridun M. Emecen: *Yavuz Sultan Selim*, İstanbul 2010, s. 360.

8 Osman G. Özgüdenli: "İstanbul Kütüphanelerinde Bulunan Farsça Yazmaların Öyküsü: Bir Giriş", *Ankara Üniversitesi Dil ve Tarih-Coğrafya Fakültesi Tarih Bölümü Tarih Araştırmaları Dergisi*, c. 27, no. 43, Ankara 2008, s. 34, 35.

9 Osman Turan: "Şemseddin Altun-Aba, Vakfiyyesi ve Hayatı", *Türk Tarih Kurumu Belleten*, c. XI, no. 42 (1947), s. 202; M. Cunbur: "Selçuklu Devri Konya Kütüphanesi", *Selçuk Üniversitesi, Selçuk Dergisi*, c. II/1 (1986), s. 41, 42; M. Can: "Selçuklular Devri Konya Kütüphaneleri Tarihçesi", *Selçuk Üniversitesi Selçuk Dergisi*, c. II/1 (1986), s. 51.

10 S. Ünver: "Anadolu Selçukluları Zamanında Umumi ve Hususi Kütüphaneler", *Atatürk Konferansları II*, Ankara 1970, s. 8: 10.



طاي؛ ولا المكتبات الموجودة في دار حفاظ قوطلو ملك خاتون^{١١}، وزاوية فقيه دده^{١٢}، ومدرسة أبليلكچی (آلتون آبا)^{١٣}، ومسجد خوجه فروخ^{١٤}، ومسجد صوباشی في باي شهر^{١٥}، وخانقاه نظامية أبي سناء محمود^{١٦}. كذلك، لم تُمس الكتب التي كانت في مكتبة خانقاه صدر الدين القونوي، والتي كانت تضم كتبًا بخط صدر الدين القونوي، وبخط زوج أمه محي الدين بن عربي، إضافة إلى كتب صدر الدين القونوي الخاصة، وأُعدت فهارس لهذه المكتبة. وفي عمليات الحصر التي أُجريت في فترات مختلفة، كانت تُعد قوائم بالكتب الموجودة فيها^{١٧}.

واستمر وجود المكتبات في عدد من المدن التي فتحها العثمانيون، مثل مكتبات مدارس: چاندرالی إسماعيل بك^{١٨}، وعطا بك غازي، ومظفر الدين غازي^{١٩} في قسطنطيني، وعلاء الدين بك في أولوبورلو^{٢٠}،

11 M. Cünbur: a.g.m., s. 42.

وللتعرف على قيد الوقف على واحد من الكتب التي أوقفها قوطلو ملك خاتون وهو برقم Konya Yusufaga Kütüpha- nesi no. 4812 انظر:

Mikail Bayram: "Anadolu Selçukluları Zamanında Konya'da Dinî ve Fikrî Hareketler", *Dünden Bugüne Konya'nın Kültür Birikimi ve Selçuk Üniversitesi*, Konya 1999, s. 49.

12 Tapu-Kadastro Arşivi, 906 Tarihli Tapu-Tahrir Defteri no. 1126, s. 47b, 48a.

يبدو أنه قد فقد سبعة من الكتب الموجودة في هذه الزاوية في تحرير بتاريخ محرم ١١٢٣هـ / فبراير ١٧١١م. انظر:

Tapu-Kadastro Arşivi, 1123 Tarihli Tapu-Tahrir Defteri no. 1135, s. 11.

13 Zeki Atçeken: "İplikçi (Altun-Aba) Medresesinin Bilinmeyen Bir Yönü ve Osmanlılar Zamanında Bakım ve Kullanılması", *Vakıflar Dergisi* XXII (1991), s. 317, 318.

14 Feridun Nafiz Uzluk: *Fâtih Devrinde Karaman Eyaleti Vakıfları Fihristi*, Ankara 1958, s. 20.

15 Feridun Nafiz Uzluk: *Aynı eser*, s. 38; Tapu-Kadastro Arşivi, Tapu-Tahrir Defteri no. 1126, s. 47b, 48a. Ayrıca bkz: M. Akif Erdoğan, "Murad Çelebi Defteri: 1483 Yılında Karaman Vilâyetinde Vakıflar I", *Tarih İncelemeleri Dergisi*, c. XVIII, no. 1, 2003, s. 125, 126.

16 M. Cünbur: a.g.m., 42.

17 Belediye Ktp. Mc. O. 116/ I, s. 6b: 8b; Bu defterin yayımı için bkz: M. Akif Erdoğan, a.g.m., s. 119: 160; Tapu-Kadastro Arşivi 1135 (Karaman Evkaf Defteri), s. 8: 10; Tapu-Kadastro Arşivi, Konya Vakıf Defteri 564, s. 4: 6.

وانظر أيضًا: إیرج افشار: فهرست كتبخانه صدر الدين قونوي، تحقیقات إسلامي، مجلد ١٠، رقم ١، ٢، تهران ١٣٧٤هـ / ١٩٩٦م، ص ٤٧٧: ٥٠٢.

18 İsmail Hakkı Uzunçarşılı: *Anadolu Beylikleri*, Ankara 1969, s. 138; Yaşar Yücel: *XIII-XV. Yüzyıllarda Kuzey-Batı Anadolu Tarihi, Çoban-Oğulları Beyliği-Candar-Oğulları Beyliği*, Ankara 1988, s. 116, 117; İsmet Kayaoğlu: "Candaroglu İsmail Bey Vakfiyesi", *X. Türk Tarih Kongresi, Bildiriler*, c. III, Ankara 1991, s. 1041: 1047.

19 Fâzıl Çifçi: *Kastamonu Câmileri-Türbeleri ve Diğer Tarihi Eserler*, Ankara 1995, s. 258.

20 Böcüzâde Süleyman Sâmî: *Kuruluşundan Günümüze Isparta Tarihi*, İstanbul 1983, s. 97.



ومحمد بك آيدين أوغلي في برجى^{٢١}، وجاجا أوغلي نور الدين بك في قيرشهر^{٢٢}، وياغي باصان في نيكسار^{٢٣}، والزنجيرية والخاتونية في ديار بكر^{٢٤}، وأشرف أوغلي في بايشهر^{٢٥}، وإسحق بك في مانسيا^{٢٦}، ويعقوب چلبى^{٢٧}، وإسحق فقيه في كوتاهية^{٢٨}، وگوك^{٢٩}، والبرجية في سيواس^{٣٠}.

ونعلم أن السلطان سليم الأول -بعد ضم حلب- عمّر ضريح محي الدين بن عربي في منطقة الصالحية، وأسس زاوية كبيرة بها، وأوقف عليها أوقافاً. وحذا رجال الدولة الآخرون في تلك الفترة حذوه، وأسسوا أوقافاً مهمة^{٣١}.

وفي عهد القانوني، أُعيد تنظيم مكتبات أضرحه علي رضي الله عنه وموسى الكاظم في بغداد^{٣٢}، وأعدت قوائم للكتب الموجودة بها^{٣٣}. وعقب استيلاء العثمانيين على أربيل عام ١١٣٧هـ / ١٧٢٥م من الصفويين، أعدّ فهرس لثمانمائة وأربعة وأربعين مجلداً كانت موجودة في ضريح الشيخ صفى الدين الأربيلي، كما أسس العثمانيون مكتبة هناك. ولكن عقب احتلال الروس مدينة أربيل في عام ١٨٢٨م، نقل الجنرال بلاشيتش المجموعة الموجودة بها إلى سان بطرسبرج^{٣٤}.

21 Hüseyin Rahmi Ünal: *Birgi (Tarihi, Tarihî Coğrafyası ve Türk Dönemi Anıtları)*, Ankara 2001, s. 180, 181.

22 Ahmet Temir: *Kırşehir Emiri Cacaoğlu Nur el-Din'in 1272 Tarihli Arapça-Moğolca Vakfiyesi*, Ankara 1959, s. 99.

23 Özer Soysal: *Türk Kütüphaneciliği*, c. IV, Ankara 1999, s. 44, 45.

24 Ö. Soysal: *a.g.e.*, c. IV, s. 46: 49.

25 Ö. Soysal: *a.g.e.*, c. IV, s. 76, 77.

26 Sadık Karaöz: *Manisa İli Kütüphaneleri*, Manisa 1974, s. 17.

27 Ara Altun: "Kütahya'nın Türk Devri Mimarisi, Bir Deneme", *Kütahya*, İstanbul 1981: 1982, s. 302: 304; A. Osman Uysal: *Germiyanogulları Beyliğinin Mimari Eserleri*, Ankara 2006, s. 126, 127.

28 Mustafa Çetin Varlık: *Germiyan Oğulları Tarihi (1300-1429)*, Ankara 1974, s. 108: 110; Ara Altun: *a.g.m.* s. 315; A. Osman Uysal: *Aynı eser*, s. 163.

29 Aptullah Kuran: *Anadolu Medreseleri*, c. 1, Ankara 1969, s. 92: 94; Ö. Soysal, *Türk Kütüphaneciliği II*, s. 55: 58.

٣٠ رضوان نافذ وإسماعيل حقي أوزون چارچلي أوغلو: سيواس شهرى، أنقره، ١٩٢٨م، ص ١١٢. وانظر:

Sadi S. Kucur: *Sivas Tokat ve Amasya'da Selçuklu ve Beylikler Devri Vakıfları-Vakfiyelere Göre*- Basılmamış Doktora Tezi, Marmara Üniversitesi 1993, s. 36.

31 Timothy Jude Fitzgerald: *Ottoman Methods of Conquest: Legal Imperialism and the City of Aleppo 1480-1570*, Yayınlanmamış doktora tezi, Harvard Üniversitesi 2009, s. 240, 241.

32 BOA. Bağdat Tapu Defteri 386, s. 117, 118, 124: 127, 161.

33 Tapu-Kadastro Arşivi Defter no. 1134, s. 46b: 50b.

34 Osman G. Özgüdenli: "Şeyh Safiü'd-dîn Erdebilî'nin Türbesinde Bulunan Kitaplar", *Marmara Üniversitesi Türklük Araştırmaları Dergisi*, no. 10, İstanbul 2001, s. 43: 56.



وهناك وثيقة بتاريخ ١٢ ربيع الأول ٨٩٠هـ / ٢٩ مارس ١٤٨٥م في سجلات بورصة الشرعية، توضح بصورة جلية مدى حرص العثمانيين على المحافظة على الكتب الموقوفة ومنع المتاجرة بها. وتنص هذه الوثيقة على أن «تفسير القاضي البضاوي» أحضر إلى إسطنبول، وكان أحد الكتب التي أوقفها الحاكم التيموري شاه رخ ميرزا (١٤٠٥: ١٤٤٧م). وعندما عُرض ذلك التفسير للبيع، اشترى من أجل الخزينة العامرة، أي من أجل المكتبة التي في القصر، ولكن علم بعد ذلك أن هذا الكتاب من الكتب الموقوفة، فأرسل إلى الأمير علي شيرنوائي في ولاية العجم ليعاد إلى مكانه مرة أخرى^{٣٥}.

وهناك حادثة ذكر خوجة سعد الدين في تاريخه أنها قد حدثت أثناء عبور الجيش العثماني للصحراء خلال الحملة على مصر، وهذه الحادثة مهمة؛ لأنها توضح بجلاء عدم نهب المكتبات الوقفية التي كانت في القاهرة عقب دخول العثمانيين إلى مصر، وأنه لم يؤخذ أي كتاب موقوف من أية مكتبة فيها، حيث قال: «في ليلة حالكة الظلام أغار العرب على مؤخرة الجيش وفقد صندوق للكتب. وكان من بين الكتب نسخة من كتاب (تاريخ وصاف) مكتوبة بخط جميل. وكان المرحوم السلطان يميل إلى هذه النسخة، ويجعلها سلواه طوال الطريق، فقال: «أيها الوالد، كان هناك معلم في القصر اسمه مولانا شمس الدين، وكان له خط حسن جميل، وهو معروف بسرعته في النسخ؛ حيث كان ينسخ مصحفًا بخطه كل اثني عشر يومًا، وعندما تُفتح مصر، سوف أصدر أمرًا إلى أستاذهم حليمي أفندي بأن يجعل شمس الدين يكتب لنا نسخة من (تاريخ وصاف)»^{٣٦}.

فإذا كان السلطان سليم قد نهب مكتبات الوقف كما تزعم تلك الادعاءات، فلماذا يفضل استنساخ كتاب (تاريخ وصاف) الذي كان موجودًا في واحدة من هذه المكتبات الوقفية بدلًا من أخذه والاستيلاء عليه؟

وبناء على ما رأينا في النماذج السابقة فإن العثمانيين كانوا يتصرفون بغاية الحساسية في موضوع المكتبات الوقفية في المناطق التي فتحوها. وهذا الحرص الذي أظهره تجاه الكتب الموقوفة ظل مستمرًا حتى الفترة الأخيرة من عمر الدولة العثمانية^{٣٧}. وكان الكتاب الذي يظهر في أي تركة يُرسل على الفور إلى

٣٥ سبب تحرير تلك الحروف أنه في زمن المرحوم محمد خان -طيب الله ثراه- أحضر أحد الأشخاص تفسير القاضي من الكتب الموقوفة للسيد شاه رخ أمير زاده وباعه وأخذه للخزينة العامرة. وظل الحال على هذا، ولما ظهر وقف الكتاب المزبور أعطى فخر الأفاضل قاضي العسكر علي چليي أفندي الكتب إلى مفخرة الأماثل الحافظ محمد قره باش الكاتب المشار إليه. وسلمه إلى خوجه حافظ محمد يزدي، فحمله وأوصله إلى الأمير علي شيرنوائي الذي كان حاكمًا على ولاية العجم في ذلك الوقت، وحضر قره باش الحافظ المزبور ومعه الكتاب، وسلمه إلى الحاج حافظ يزدي المذكور في محضر من مجلس شرعي، فأخذ الكتاب وتسلمه. انظر:

Halil İnalçık: "Osmanlı İdare, Sosyal ve Ekonomik Tarihiyle İlgili Belgeler: Bursa Kadı Sicillerinden Seçmeler", *Türk Tarih Kurumu Belgeler*, c. X, no. 14 (Ankara 1981), s. 43, 44.

36 *Tâcu't-Tevârih*, c. II, s. 610.

٣٧ على سبيل المثال عندما علم أن محافظ مصر إسماعيل باشا قد أمر ببيع ممتلكات عباس أغا من أغوات دار السعادة وكتبه، والتي كان قد أوقفها في القاهرة؛ أرسل حكم إلى والي مصر وقاضيه بتاريخ غرة جمادى الأولى ١١٠٩هـ/ نوفمبر ١٦٩٧م طلب فيه دفع ثمن الممتلكات والكتب المباعة واستعادتها ممن اشتراها وتسليمها إلى متولي الوقف. انظر:

BOA. Mühimme Defteri 110, s. 209.



المكان الموقوف عليه. وفي هذا الشأن، استُحدثت وظائف ومهام تتعلق بهذا الموضوع، تمثلت في اتخاذ التدابير اللازمة لإرسال الكتب إلى مكتبة بايزيد العامة في حال تعذر الوصول إلى المكتبات التي أوقفت تلك الكتب عليها^{٣٨}. وعندما ظهر أن هناك عشرة كتب تخص مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت في المدينة، من بين الكتب التي أوقفها جودت باشا على مكتبة ولي الدين أفندي، أسقطت هذه الكتب من سجل المكتبة، وأُرسلت إلى المدينة المنورة^{٣٩}.

وكانت المناطق التي تزدحم بالمكتبات في جغرافيا العالم الإسلامي بين القرنين الحادي عشر والسابع عشر هي: مصر وسوريا والحجاز. وقد حوُظ على المكتبات الموجودة في تلك المناطق بما احتوته من كتب نُسخت أو أُلِّفت في فترات لاحقة، أو كتب نجت من النهب والتخريب الذي تعرضت له تلك المكتبات خلال الحملات الصليبية وهجمات المغول. ولأن معظم تلك المكتبات كانت مؤسسات وقفية تقع خارج سيطرة الدولة وإدارتها، فقد تعرض قسم منها لخسائر كبيرة؛ نتيجة الإهمال وسوء إدارة من جانب متولي تلك الأوقاف. وتأتي مصر على رأس قائمة المناطق التي تعرضت لهذا الحجم من الخسائر؛ وذلك بسبب ميراثها الثقافي الغني الذي كانت تمتلكه.

مصر:

احتلت المكتبات مكانة مهمة بين المؤسسات العلمية التي ظهرت نتيجة المساعي التي بُذلت من أجل تطوير التربية والتعليم في الدول العربية التي نشأت في العالم العربي عقب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م). ولكن لفت انتباه الباحثين أن المؤلفات المتعلقة بالثقافة الإسلامية في تلك المكتبات كانت قليلة مقارنة بما ينبغي أن تكون عليه. وبناء على ما ذكرناه سابقاً، فقد حاول بعض الباحثين تفسير هذا الوضع عن طريق طرح وجهة نظر تقوم على أن العثمانيين قد نهبوا المكتبات الوقفية في هذه المناطق، منذ الفترة التي بدأت بدخولهم إلى مصر، مستنديين في ذلك إلى ما ذكره ابن إياس في كتابه.

وفي النصف الأول من القرن العشرين، ألّف فيليب دي طرازي، مؤسس دار الكتب اللبنانية، كتاباً شاملاً عن المكتبات في العالم الإسلامي، وفي معرض حديثه عن المكتبات في مصر قال تحت عنوان: «فتح الأثرak مصر ونقلهم منها مخطوطات وأموالاً على ألف جمل»: «وكان في عداد حاشية السلطان سليم الأول نخبة من أرباب العلم الذين دُهبوا بما شاهدوه من الآثار الثمينة في المكاتب المصرية. فلما أخبروه بذلك أمرهم بجمع خيارها وانتقاء نفائسها لنقلها إلى عاصمة سلطنته. ويقال إنه اقتضى في ذلك العهد ألف جمل لنقل تلك الكتب مع سائر ما نقله السلطان المشار إليه من الذهب والأسلاب والهدايا»^{٤٠}.

38 BOA. MFV. KTU. Dosya 4, evrak 72 ve 79; BOA. MFV. KTU. Dosya 3, Evrak 45; Dosya 2, Evrak 5, 6, 11, 13, 14, 18, 22; BOA. MF. KTU. Dosya 3, Evrâk 45; Dosya 2, Evrâk 5, 6, 11, 13, 14, 15, 18, 22, 23, 24.

39 BOA. MF. KTU. 5/98.

٤٠ فيليب دي طرازي: خزائن الكتب في الخافقين، ج ١، بيروت، ١٩٤٧م، ص ١٨٨. وقد شاركه وجهة النظر نفسها يحيى وهيب الجبوري. انظر: يحيى وهيب الجبوري: الكتاب في الحضارة الإسلامية، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٣٢٣، ٣٢٤.



واستمر القول بنهب العثمانيين مكتبات الوقف في المناطق العربية في دراسات بعض المؤلفين العرب المشتغلين بالمخطوطات، وعلى رأسهم فؤاد سيد وأيمن فؤاد سيد^{٤١}، مستنديين في ذلك إلى ما ذكره ابن إياس كدليل على وجهة نظرهم. ويذكر فؤاد سيد في مقاله المتعلق بإعارة بعض الكتب من المكتبة المحمودية: «أن الكثير من الكتب في هذه المكتبة وفي المكتبات الأخرى في مصر قد نقله السلطان سليم الأول إلى إسطنبول عقب دخوله إلى مصر عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م»^{٤٢}.

وذكر أيمن فؤاد سيد في معرض حديثه عن ضعف مجموعات الكتب في فترة تشكّل دار الكتب المصرية قائلاً: «ومع الفتح العثماني لمصر عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م أخرج السلطان سليم الأول مجموعة من المصاحف والمخطوطات حملها معه إلى تركيا، وكذلك من سائر البلاد العربية التي فتحها العثمانيون، كانت نواة المجموعة الضخمة من المخطوطات العربية التي تحتفظ بها الآن مكتبات تركيا والتي تزيد عن ثلاثمائة ألف مخطوط»^{٤٣}.

كما تحدث المؤلف في مقاله عن أربع مخطوطات خرجت من مكتبة المدرسة المحمودية واستقرت اليوم في مكتبات آياصوفيا وكوبرولي وقصر طوبقابي، قائلاً: «إن ابن حجر قد ذكر أن مجموع الكتب في هذه الخزانة كان نحو أربعة آلاف مجلد، غير أنه لم يبق منها، عند جمع الكتب الموجودة في المدارس والمساجد وضمها إلى الكتبخانة الخديوية في نهاية القرن الماضي، سوى ثمانية وخمسين كتاباً فقط»^{٤٤}. ولم يكتف أيمن فؤاد سيد بذكر ادّعاءات مشابهة لهذه في أحد الكتب التي ألّفها حول المخطوطات، بل أضاف أن مكتبات المدارس التي تأسست في عهد المماليك في مصر ودمشق واليمن، وكان أغلبها في القاهرة، قد شكّلت الأساس لجزء كبير من المخطوطات في مكتبات إسطنبول^{٤٥}. وانطلاقاً من ذلك، وبما أن كل واحدة من مكتبات المدارس في القاهرة كانت مؤسسة وقفية، فقد ترسّخت نتيجة مفادها: «أن العثمانيين قد استولوا على الكتب الموقوفة».

وفي مقالة كتبها أيمن فؤاد سيد بعد ذلك، ذكر أن العثمانيين قد نقلوا الكتب الموجودة في مكتبات المدارس في القاهرة إلى إسطنبول، فقال: «وكان من أهم ما أخرج العثمانيون سواء من مصر أو من سائر البلاد العربية التي فتحوها الكتب النفيسة، فقد ورث العثمانيون الدول الإسلامية السابقة عليهم واعتبروا

٤١ وفي مقابل ذلك، أوضح المؤرخ المصري ناصر عبد الله عثمان أن السلطان سليم الأول لم يتدخل بأي شكل في الأوقاف الموجودة في مصر بعد دخولها تحت الحكم العثماني. ولكن ما وقع بعد ذلك من بعض السلاطين لم يكن على النهج نفسه الذي اتّبعه السلطان سليم الأول. انظر: ناصر عبد الله عثمان: قبل أن يأتي الغرب الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر، القاهرة، ٢٠٠٦ م، ص ٨٦.

٤٢ فؤاد سيد: «نصان قديمان في إعارة الكتب»، مجلة معهد المحفوظات العربية، ج ٤، القاهرة، ١٩٥٨ م، ص ١٢٩.

٤٣ أيمن فؤاد سيد: دار الكتب المصرية: تاريخها وتطورها، القاهرة، ١٩٩٦ م، ص ١٦، ١٧.

٤٤ المرجع السابق، ص ١٦، ١٧.

٤٥ أيمن فؤاد سيد: الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات، القاهرة، ج ٢، ١٩٩٧ م، ص ٥١١.



أنفسهم الحكام الوحيدين للعالم الإسلامي بعد انتقال الخلافة إليهم، فكان من الطبيعي أن ينقلوا إلى عاصمتهم عاصمة الخلافة - بين ما نقلوه من البلاد التي وقعت تحت سيطرتهم - الإنتاج الفكري العربي المتمثل في المخطوطات العربية، فاستولوا على المخطوطات التي كانت موجودة في خزائن مدارس القاهرة ومساجدها المختلفة ونقلوها - أو بالأحرى قسمًا كبيرًا منها^{٤٦} - إلى إسطنبول وخاصة المدرسة المحمودية الواقعة الآن بقصبة رضوان خارج باب زويلة، والمدرسة الصيرغتميشية المجاورة لجامع ابن طولون، والمدرسة المؤيدية الملاصقة لباب زويلة من داخله، بالإضافة إلى مدارس ومساجد وزوايا أخرى^{٤٧}.

ومثلما رأينا فإن أيمن فؤاد سيد قد أورد في هذه المقالة أسماء أربعة كتب سبق أن ذكرها في كتابه السابق، بوصفها نموذجًا لما ذكره عن نهب العثمانيين للمكتبة المحمودية واستيلائهم على الكتب الموقوفة^{٤٨}. وفي المقالة نفسها، وبعد أن ذكر أيمن فؤاد سيد عددًا من المخطوطات ذات تواريخ قديمة موجودة في مكتبات تركيا، قال: «وأغلب الظن أن كل هذه المخطوطات وصلت إلى مكتبات تركيا من خلال مكتبات المدارس الموجودة في القاهرة»^{٤٩}. وهناك مؤلفون آخرون يذهبون إلى أبعد من ذلك في هذا الموضوع، فشعبان عبد العزيز خليفة قال: «إن العثمانيين قد سرقوا مائة ألف مخطوط من القاهرة عندما احتل العثمانيون مصر في أوائل القرن السادس عشر (١٥١٧م)، جمعوا مشاهير العلماء والصناع، وبذلوا جهدهم وطاقتهم في نهب خزائن مكتبات مصر، وأرسلوا هذه الكتب إلى إسطنبول. وهذه المخطوطات التي نهبها والبالغ عددها مائة ألف مخطوط أسسوا بها اثنتين وأربعين مكتبة»^{٥٠}.

أيضًا بعد أن ذكر السيد السيد النشار المعلومة التي أوردها ابن إياس قال: «إن العثمانيين قد نهبوا مكتبات الوقف وأن الأمر تطلب ألف بعير لنقل كتبها إلى إسطنبول». وفي معرض تأكيده لرواية ابن إياس قال: «إن الدليل على ذلك هو وجود ما يقارب المائة ألف مخطوطة في اثنتين وأربعين مكتبة في إسطنبول»^{٥١}.

٤٦ وُضعت هذه العبارة في المتن بين قوسين، ولا أعلم هل وضع أيمن فؤاد هذه العبارة على هذا النحو أم محرر الكتاب.

٤٧ أيمن فؤاد سيد: انتقال المخطوطات العربية إلى تركيا وأثره في توطيد الصبغة الإسلامية للخلافة العثمانية، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، أعدّه للنشر: صالح سعداوي، تقديم: أكمل الدين إحسان، إسطنبول، ٢٠٠٠م، ص ٢٩٤، ٢٩٥.

٤٨ المرجع السابق، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

٤٩ المرجع السابق، ص ٢٩٧.

٥٠ شعبان عبد العزيز خليفة: «أول لائحة لدار الكتب المصرية: صفحة مجهولة في تاريخ المكتبة العربية»، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، العدد ٤، القاهرة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٦، ٧.

٥١ السيد السيد النشار: دراسات في تاريخ الكتب والمكتبات، دار الثقافة العلمية، (دون تاريخ)، ص ٣٣٠، ٣٣١. وبعد أن تحدث المؤلف عن نفس الموضوع في كتاب آخر قال: «والحقيقة أن ابن إياس هو المؤرخ الوحيد المعاصر للفتح العثماني الذي ذكر حادثة السطو على المكتبات المملوكية، ونقل عنه كل من أتى بعده من المؤرخين أخبار هذه الحادثة». انظر: السيد السيد النشار: تاريخ المكتبات في مصر العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢٤٢. وفي موضع آخر من



أما محمود محمد الطناحي فقد خلط بين سليم الأول وسليم الثاني (١٥٦٦: ١٥٧٤م) وقدم ادعاء غريباً مليئاً بالمعلومات الخاطئة، فقال: «ولقد قال الناس وأكثروا عن أخذ السلطان سليم للصناع والمهرة من مصر وسلب المخطوطات، ووالله لقد رأيت هذه المخطوطات بعيني بالمكتبة السليمية الوطنية في أدرنة بشمال تركيا؛ حيث مات ودُفن السلطان سليم»^{٥٢}.

وكان عبد اللطيف إبراهيم^{٥٣}، ويحيى ساعاتي^{٥٤}، أيضاً ممن استشهدوا بما ذكره ابن إياس وحملوا العثمانيين المسؤولية عن خسائر الكتب التي لحقت بمكتبات المدارس في العصر المملوكي^{٥٥}، وكرر حمد بن عبد الله العنقري الادعاءات نفسها في حديثه عن خسائر الكتب الخاصة بالمكتبات السعودية^{٥٦}.

وانضم أكاديمي تركي هاوٍ إلى أولئك الذين طرحوا مثل هذه الادعاءات، فقال: «وعلاوة على ذلك كان سبب هذه الحملات المتتابة هو الاستيلاء على مدن مثل: أورفة والقاهرة وبغداد والإسكندرية وحلب والقدس، والتي كانت تُعد مراكز وحواضر مهمة في مجالات العلم والثقافة والتعليم والفن في فترات سابقة، وأرسلوا الكتب الثقافية والفنية الموجودة في هذه المدن إلى إسطنبول. وشكّلت الكتب المأخوذة من المكتبات سالفه الذكر مجموعة مكتبة القصر، أي الخزانة العامة التي تأسست نتيجة الحملات التي شنّها السلطان سليم الأول. وتحتل الكتب التي كانت موجودة في المكتبات في القاهرة والإسكندرية، وبغداد خاصة، مكانة مهمة بين الكتب الفنية تلك»^{٥٧}.

ولو ربطنا قلة عدد المكتبات الخاصة بالمدارس المملوكية في القاهرة بعد الفتح العثماني^{٥٨} بنهب سليم

كتابه، أشار النشار إلى أن مصر تحت الحكم العثماني (١٥١٧: ١٧٩٨م) قد شهدت تأسيس الكثير من المدارس والمساجد والتكايا على يد العثمانيين، وكانت المكتبات توجد في الكثير منها. انظر: المرجع السابق، ص ٢٤٤، ٢٤٥.

٥٢ مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي، القسم الأول، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٢٤.

٥٣ عبد اللطيف إبراهيم: دراسات في الكتب والمخطوطات الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٨٤، ٨٥.

٥٤ يحيى محمود ساعاتي: الوقف وبنية المكتبة العربية، الرياض، ١٩٨٨م، ص ١٧٦.

٥٥ ويقول ساعاتي في موضع آخر من كتابه: «إنه كان لبعض المشرفين على المكتبات والكتب الوقفية دور مباشر في خلخلة بنيتها والإساءة إلى هدفها السامي، وذلك عن طريق التهاون في أداء الرسالة الموكلة إليهم أو المشاركة في استغلال محتوياتها عن طريق تسهيل سطوها ونهبها أو إعادتها دون ضمان لبعض المتنفذين رغبة في الوصول إلى أغراض دنيوية عن طريقهم». انظر: المرجع السابق، ص ١٧٩. وكما سنعرض فيما يلي من الصفحات، فإن الخسائر المعتبرة التي تعرضت لها هذه المكتبة قد حدثت نتيجة إهمال للموظفين واستغلالهم سواء من قبل العثمانيين أم بعد انتهاء الدولة العثمانية.

٥٦ حمد بن عبد الله العنقري: مكتبات الدولة السعودية الأولى المخطوطة، دراسة تحليلية لعوامل انتقالها واندثارها بعد سقوط الدرعية، الرياض، ٢٠٠٩م، ص ٤٤.

57 Hakan Anameriç: "Osmanlılarda Kütüphane Kültürü ve Bilimsel Yaşama Etkisi", VI. Uluslararası Türk Kültürü Kongresi Bildirileri, c. II, yay. haz. Şebnem Ercebeci, Ankara, 2009, s. 563.

٥٨ وخلافاً لتلك الآراء التي طرحها بعض الباحثين، نجد أن المؤرخ المصري ناصر عبد الله عثمان قد استفاد من قيود السجلات الشرعية، وأثبت استمرار وجود الكثير من مكتبات المدارس في القرن السابع عشر. وأشار إلى خطأ وجهة النظر



الأول للمكتبات الغنية التي كانت في المدارس، فيلزمنا أن نحدد أين وُضعت الكتب التي زُعم أنها قد أُحضرت إلى إسطنبول. ومن الطبيعي أن أول ما يخطر على البال هو أن المكان المقصود سيكون مكتبة القصر. وفي هذه المكتبة، التي أسسها السلطان محمد الفاتح في السراي القديمة، كان يوجد بها في عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م سبعة آلاف كتاب ضمن خمسة آلاف وسبعمائة مجلد^{٥٩}. ولكن بعد مرور قرنين على هذا التاريخ، انخفض عدد الكتب في المجموعة التي شكّلها السلطان أحمد الثالث إلى خمسة آلاف^{٦٠}. وخلال هذه المدة، لم يؤسس أي من السلاطين مكتبة في إسطنبول مستخدمًا مجموعات مكتبة القصر.

وقبل قرن من دخول العثمانيين إلى مصر، كان في المكتبة المحمودية أربعة آلاف كتاب بحسب ما نقله ابن حجر^{٦١}. وتحدث بعض الباحثين الآخرين -وعلى رأسهم أيمن فؤاد- عن مكتبات المدارس الأخرى التي نُهبَت إضافة إلى المحمودية. وإذا ما افترضنا أنه قد أُحضرت كتب هذه المكتبات إلى إسطنبول، فمن الضروري أن يكون في مكتبة قصر طويقابي آلاف الكتب التي تحمل ختم الوقف، ومئات الكتب في كل واحدة من المكتبات التي أسسها رجال الدولة.

وكما ذكرنا قبل ذلك، فإن أيمن فؤاد استطاع أن يجد بضعة كتب فقط تعود إلى مجموعات مكتبات المدارس الغنية الخاصة بالعصر المملوكي، والتي يقال إنها أُحضرت إلى إسطنبول. وما لم تُحدد الكتب الخاصة بهذه المكتبات -والتي حملت ختم الواقف أو قيده- في مكتبة القصر أو في مكتبات إسطنبول، فإن تلك الاتهامات التي ذكرها بعض المؤلفين لا تعدو أن تكون ادّعاءات بلا أساس.

وفي تلك الحال، سيكون من الضروري أن نجد جوابًا عن سؤال مفاده: ما هي مكتبات المدارس التي كانت في مصر، وما الكتب الموقوفة بها؟

والواقع أن من أهم أسباب تعرض مكتبات الوقف في مصر لخسائر كبيرة -إلى جانب الحرائق والإهمال ووقوع البلاد تحت الاحتلال^{٦٢}- توافر بيئة ملائمة لتجارة الكتب التي تنتمي إلى المجموعات الغنية التي

التي يتبنّاها بعض الباحثين في موضوع تشتت مكتبات المدارس التي تأسست قبل العثمانيين، عقب دخول العثمانيين إلى القاهرة. انظر: ناصر عبد الله عثمان: قبل أن يأتي الغرب، مرجع سابق، ص ١٠٩، ١١٠.

59 Maróth, Miklós: "The Library of Sultan Bayezid II", *Irano-Turkic Cultural Contacts*, yayına haz: Eva M. Jeremiàs (Piliscsaba, 2003), s. 112.

60 Şükrü Yenal: "Topkapı Sarayı Müzesi Enderûn Kitaplığı (Ahmet III Kitaplığı)", *Güzel Sanatlar* 6, (İstanbul 1949), s. 90.

٦١ فؤاد سيد: نسان قديمان، مرجع سابق، ص ١٢٨. وبحسب ما نقله السخاوي فإنه بعد مرور ست وثلاثين عامًا على تأسيس المكتبة عُيِّن خازن للمكتبة، وأدى ذلك إلى ضياع عُشر ما في المكتبة من كتب، وكان بها قرابة أربعة آلاف مجلد، فنقصت أربعمائة. ونقصان هذا العدد خلال تلك المدة القصيرة يوضح حجم الفقد الذي تعرضت له تلك المكتبة، ويظهر مدى ضعف إدارتها. المرجع السابق، ص ١٢٨، ١٢٩.

٦٢ عبد الجبار عبد الرحمن: تسريب التراث العربي المخطوط إلى المكتبات الأوروبية والأمريكية، آفاق الثقافة والتراث، ج ٢٨ / ٣١، دبي، ٢٠٠٠م، ص ٥٦: ٥٩.



كانت في مصر، ووجود نهم لدى الأجانب للاستيلاء على الكتب القيمة، وقد ساعدهم على ذلك ما كان لدى بعض السكان المحليين من رغبة في تحقيق أرباح مادية من خلال هذا الطريق. ولهذا السبب، احتلت مصر - وخاصة بين القرنين الرابع والتاسع عشر - مركزاً مهماً في تجارة الكتب في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط الإسلامي. واعتباراً من القرن الرابع عشر فصاعداً، بدأ العثمانيون يأخذون مكانهم بين المشتريين في سوق الكتب في مصر. وتشكّل مسار لتدفق الكتب إلى إسطنبول، استمر حتى القرن التاسع عشر، عن طريق التجارة والرحلات العلمية، لا عن طريق النهب. ويحكي محمد، مؤلف كتاب (عشق نامه) بشكل ممتع كيف أنه اشترى - عن طريق أحد الدّالّين - نسخة أصلية من الكتاب الذي نقله إلى التّركية الأناضولية عام ٨٠٠هـ / ١٣٩٧: ١٣٩٨م من أحد بائعي الكتب في القاهرة^{٦٣}.

ونحن نعلم من الأسطر التي وردت في المقدمة التّركية لهذه المناقب أن الشيخ أحمد عاشق بن عاشق باشا، وهو في طريقه إلى الحج عام ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م اشترى كتاب (مناقب الشيخ أبو الوفا) من مصر وأحضره معه إلى إسطنبول^{٦٤}. وفي تلك الفترات المبكرة، كان يوجد سوق بجوار مسجد عمرو بن العاص، تتجمع فيه الطائفة التي تشتغل ببيع الكتب^{٦٥}. وتحدث المصادر عن وجود عدة أسواق للكتب في القاهرة في عهد المماليك^{٦٦}. وفي الفترات التالية، استقر تجار الكتب بجوار الأزهر، الذي كان يمثل مركز الحياة الثقافية في القاهرة. وكانت الكتب تُباع في خان الخليلي في تلك المنطقة^{٦٧}. ويقول الجبرتي إن تجار الكتب كانوا يتواجدون في النواحي المقابلة لمسجد الحسين رضي الله عنه وسوق العقّادين^{٦٨}. ونعلم أن المؤرخ عالي كان يريد العودة إلى القاهرة بأية ذريعة أو في أية مهمة، بسبب شهرة سوق تجار الكتب بها^{٦٩}. وبحسب أوليا چلبی، كان يشتغل بتجارة الكتب ثلاثون شخصاً في عشرين حانوتاً لبيع الكتب، وكانت هذه الحوانيت تقع بجوار الأزهر، لا في المراكز التي تزدهم بالمؤسسات التجارية^{٧٠}. وفي أحد قيود السجلات، المؤرخ

63 Kemal Yavuz, "XIII-XVI. Asır Dil Yedigârlarının Anadolu Sahasında Yazılış Sebepleri ve Bu Devir Müelliflerinin Türkçe Hakkındaki Görüşleri", *Türk Dünyası Araştırmaları*, no. 27, İstanbul, 1983, s. 26, 27.

٦٤ في أثناء ذهاب السيد أحمد عاشق بن عاشق باشا - قدس سره العزيز - للطواف حول بيت الله، أحضر مجلدين من مصر، وهما من كتاب (مناقب أبي الوفا). انظر:

Dursun Gümüşoğlu: *Tâcü'l-ârifîn Seyyid Ebu'l-Vefâ Menakıbnâmesi*, İstanbul, 2006, s. 21.

٦٥ فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، مرجع سابق، ج ٣، ١٩٤٨م، ص ٩١١.

٦٦ عبد اللطيف إبراهيم: المكتبات المملوكية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ١٢، ١٣.

67 André Raymond: *Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe siècle*, c. I, Damas, 1973, s. 343.

٦٨ عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في تراجم الأخبار، ج ٣، أعده للنشر: توماس فيليب، وموشيه بيرلمان، شتوتجارت، ١٩٩٤م، ص ٣٦٥.

69 Cornell H. Fleischer: *Tarihçi Mustafa Âli, Bir Osmanlı Aydın ve Bürokrati*, çev. Ayla Ortaç, İstanbul, 1996, s. 189.

70 Seyit Ali Kahraman-Yücel Dağlı-Robert Dankoff (haz.): *Evliya Çelebi Seyahatnâmesi*, c. 10, İstanbul, 2007, s. 202.



بتاريخ ١١٥٥هـ / ١٧٤٢م، ذكر أن عدد تجار الكتب في سوق الكتب الموجود بالقرب من الجامع الأزهر كان يبلغ سبعة عشر تاجرًا^{٧١}. وكان هذا العدد أقل قليلًا في بعض المصادر^{٧٢}. ويذكر المستشرق الإنجليزي إدوارد ويليام لين -الذي كان موجودًا في القاهرة في أوائل القرن التاسع عشر- أن عدد هؤلاء التجار في تلك المدينة كان يبلغ أحد عشر تاجرًا؛ ثمانية منهم من العرب وثلاثة من الأتراك^{٧٣}.

وبحسب الجبرتي، كان كثير من العلماء في هذه المنطقة يشتغلون بنسخ الكتب وتجاريتها^{٧٤}. وكانت طائفة تجار الكتب في القاهرة محل تقدير بين المجموعات المهنية الراقية في هذه المدينة^{٧٥}. وكانت القاهرة -بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر- مكانًا مهمًا لتوفير أي كتاب للقصر العثماني^{٧٦}، ولرجال الدولة^{٧٧}، والعلماء العثمانيين والمستشرقين الأوروبيين المهتمين بالثقافة الإسلامية^{٧٨}، وحتى لسوق تجار الكتب في

71 Nelly Hanna: *In Praise of Books, A Cultural History of Cairo's Middle Class, Sixteenth to the Eighteenth Century*, Syracuse, New York, 2003, s. 93.

72 André Raymond: a. g. e. s. 343.

73 An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, written in Egypt During the Years 1833, -34, and -35, Partly from Notes Made During a Former Visit to that Country in the Years 1825. -26, -27, and -28 by Edward William Lane, London 1860, s. 209.

74 André Raymond: a.g.e. c. II, s. 426.

قال لين إنه كان يوجد في القاهرة خطاطون يكتسبون قوت يومهم عن طريق نسخ الكتب، وكانوا يستكتبون الصفحة الواحدة بثلاثة قروش.

Edward William Lane, s. 210.

75 Gabriel Baer, *Agyptian Guilds in Modern Times*, Jerusalem 1964, s. 40; Susan Jane Staffa, *Conquest and Fusion: The Social Evolution of Cairo, A. D. 642-1850*, Leiden 1977, s. 328.

٧٦ من المعلوم شراء بعض الموظفين القادمين إلى هذه المنطقة الكتب من أجل مكتبة القصر، وشراء بعض رجال الدولة الكتب لمكتباتهم الخاصة. وفي حكم بتاريخ ٢٧ شعبان ٩٩٦هـ / ٢٢ يوليو ١٥٨٨م، ذكر أن ميرزا مخدوم -الذي توفي وهو قاض على مكة المكرمة- كان في تركته -ضمن أشياءه الموجودة في مصر- بعض الكتب التي اشتراها من أجل القصر (الخاصة الهمايونية). انظر:

BOA, Mühimme 64, s. II.

٧٧ رأينا أن بعض رجال الدولة الذين تولوا وظائف في مصر كانوا يمتلكون مجموعات غنية من الكتب. ومن المحتمل أن قسمًا من الكتب الموجودة في هذه المجموعات كان من الكتب المشتراة من القاهرة. فعلى سبيل المثال، عندما توفي الحاج أبو بكر باشا بن مصطفى أغا -وهو والٍ على مصر- كان يمتلك مجموعة غنية من الكتب، وفق ما نعلم من تركته المؤرخة بتاريخ غرة ربيع الآخر ١١٧٩هـ / ١٧ سبتمبر ١٧٦٥م (KA. 252, s. 107: 140). ومثلما نعلم، أحضر كتاب سياحة نامه لأوليا چلبى من مصر عام ١٧٤٢م كهدية لأغا دار السعادة، حاجي بشير أغا. انظر:

Pierre A. MacKy: "The Manuscripts of the *Seyahatnâme* of Evliya Çelebi, Part I: the Archetype", *Der Islam*, c. LII/2 (Berlin 1975). s. 278; Martin Van Bruinessen ve Hendrik Boeschoten: *Evliya Çelebi in Diyarbekir*, Leiden, 1988, s. 5, 6.

٧٨ ونعلم أن جى پوستيل قد ذهب إلى إسطنبول والقاهرة عامي ١٥٣٥، ١٥٣٧م واشترى الكثير من الكتب. انظر: P. M. Holt, "The Study of Arabic Historians in Seventeenth Century England: The Background and the Work of Edward Pococke", BSOAS, c. XIX/3, London 1957, s. 445.



إسطنبول^{٧٩}. وعلى كل حال، فعلى الرغم من أن المستشرق الإنجليزي جريفرز Greaves -الذي زار القاهرة عام ١٦٣٨م- قد كتب خطابًا إلى زميله بوكيه يخبره فيه بأنه لم ينجح في العثور على الكتاب في أسواق المدينة، ولم يتمكن من شرائه^{٨٠}؛ فإن القاهرة ظلت محافظة على هويتها بوصفها سوقًا غنية بالكتب لفترة أطول. أما فانسليب -الذي زار القاهرة عام ١٦٧٣م- فقد اشترى عددًا معتبرًا من المخطوطات المكتوبة باللغة الفرنسية من تجار الكتب في المدينة^{٨١}، وكان من بين الكتب التي اشتراها ٣٩٥ كتابًا باللغة العربية^{٨٢}.

ونحن نعلم أنه اعتبارًا من القرن الثامن عشر، تولى العديد من الأشخاص المنتسبين إلى عائلة الخالدي -التي أسست مكتبة غنية في القدس- مهمة شراء الكتب بأعداد كبيرة من تجار الكتب في القاهرة وإرسالها إلى بلادهم^{٨٣}. ويقول فوليني -الذي زار القاهرة في نهاية القرن الثامن عشر- إن القاهرة كانت غنية بالكتب^{٨٤}. واشترى جان لويس اسلين دي شرقفلا الفرنسي Jean Louis Asselin de Cherville (١٧٧٢ : ١٨٢٢م)

٧٩ لفترة كانت توجد مطبعة في القاهرة يمتلكها حاجي كامل أفندي شيخ تجار الكتب في إسطنبول، انظر:

SS. Rumeli Sadaret. s. 9

وبحسب وثيقة مؤرخة بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٥٦هـ / ١٢ أكتوبر ١٨٤٠م فإنه عندما توفي أسيرجي مصطفى أفندي ظهر ضمن تركته ٢٧ مجلدة من ديوان المثنوي الشريف، و ٥٩ مجلدة من ديوان وهي (KA. 1500. S 500)، ويفهم من هذا أن مصطفى أفندي وهو يجلب العبيد من مصر من المحتمل أنه قد جلب بعض الكتب التي طبعها مطبعة بولاق وباعها؛ لأنه وجد أنها تمثل تجارة مربحة. وعندما توفي تاجر الكتب المصري الحاج الشيخ أحمد أفندي بن عبد الرحمن ظهر أسيرجي محمود أغا بن مصطفى آخر، وادعى أنه قد اشتراها مقابل خمسين قرشًا وأخذها (KA. 330. S. 906). فهل يا ترى أحضر محمود أغا بعض الكتب من مصر وباعها إلى تاجر الكتب أحمد أفندي؟!

وفي تركة الحاج سليم بن جمعة الذي توفي وهو يتاجر في الديار المصرية وجد ضمن تركته بتاريخ ١٣ رمضان ١٠٨٠هـ / ٤ فبراير ١٦٧٠م كتب أساسية تتعلق بالعلوم الإسلامية مثل: (تفسير أبي السعود) و(التارخانية) و(شرح الشافية)، و(مبسوط السرخسي) و(شرح صحيح البخاري)، و(عيون المذاهب)، و(أخي جليبي)، و(شرح الوقاية). وقدرت قيمة الستة عشر كتابًا الموجودة في التركة بـ ٥٠ ألف أقة (SS. Mülga Beledi Kassamlığı 5, s. 48a).

ولا يمكن القول إن الحاج سليم قد احتفظ بهذه الكتب عالية القيمة في الغرفة الواقعة في خان باباس أو غلو من أجل قراءتها. والحاج سليم لم يقرأ هذه الكتب أبدًا، وقد كانت تخاطب العلماء بشكل كامل. ويفهم أن الحاج سليم كان يأتي ويذهب إلى مصر من أجل التجارة، وكان يجمع هذا النوع من الكتب التي يجد لها مشترين بأعداد معتبرة في الأوساط العلمية في إسطنبول. وكان يحضرها إلى إسطنبول ويبيعها مباشرة إلى تجار الكتب وعاشقيها.

80 Twells: a.g.e. s. 15; G. J. Toomer: a.g.e. s. 140, 141.

81 Francis Richard: "Lecteurs ottomans de manuscrits persans au XVIIIe siècle", Revue des Mondes Musulmans et de la Méditerranée, no. 87-88, Aix-en-Provence 1999, s. 80.

82 Stephan Roman: The Development of Islamic Library Collections in Western Europe and North America, London 1990, s. 82, 83.

83 Lawrence I. Conrad: "The Khalidî Library", Ottoman Jerusalem the Living City: 1517-1917, yayıma hazırlayanlar: Sylvia Auld ve Robert Hillenbrand, London 2000, s. 196.

وبحسب ما نفهمه من بعض الوثائق الموجودة في مكتبة الخالدي، كان بعض أفراد هذه العائلة يشترون الكتب من القاهرة ويبيعون قسمًا منها في إسطنبول، ومقابل هذا يشترون الكتب من أجل المكتبة. المرجع السابق، ص ١٩٦.

84 M. C-F. Volney: Travels Through Syria and Egypt in the Years 1783-1784, and 1785, c. II, Translated from French, London 1788, s. 449.



ألفاً وخمسمائة وخمس عشرة مخطوطة عربية، كانت تضم مؤلفات مهمة في موضوعي التاريخ والجغرافيا، خلال الأعوام التي كان يؤدي فيها مهمة دبلوماسية في القاهرة، ثم أرسلها إلى المكتبة الوطنية في باريس^{٨٥}.

وبعد أن ذكر الجبرتي المؤرخ المصري (ت ١٨٢٢ م)، المؤلفات المتعلقة بالتاريخ التي سبق ذكرها في المصادر، قال: «وكتب التواريخ أكثر من أن تحصى، وهذه صارت أسماء من غير مسميات، فإن لم نر من ذلك كله إلا بعض أجزاء مدشته باقية من بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس مما تداولته أيدي باعة الكتب، وباعها القومة والمباشرون، ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان. ثم ذهبت بقية البقايا في الفتن والحروب وأخذ الفرنسيين ما وجدوه إلى بلادهم»^{٨٦}. وقد علق محقق الكتاب عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم على هذه المعلومة، فقال: «نقل الفرنسيون كثيراً من المخطوطات التي وجدوها محفوظة في المساجد والمدارس وبيوت الأعيان من الأمراء المماليك وكبار التجار والعلماء، ومنها عدد كبير ما يزال محفوظاً بالمكتبة الأهلية بباريس. ومن المؤكد أن قسماً من كتب الوقف التي أخرجت من مكتبات المدارس كانت تباع في سوق بائعي الكتب، وبها أثريت مكتبات النبلاء المماليك»^{٨٧}. وكما رأينا فإن الجبرتي أحد كبار المؤرخين المصريين لم يتهم العثمانيين بأنهم كانوا السبب في محو الكتب الموقوفة في المدارس.

وفي فترة متأخرة نسبياً، عام ١٨٩٧ م، اشترى د. سلمون ريشتر قسماً من مجموعة الجيزة في القاهرة لحساب جامعة كمبردج^{٨٨}. ولقد رأينا أن المشتريين كانوا يشترون الكتب القيمة بعد التفاهم مع الأشخاص المسؤولين عن المساجد التي يتولون الإشراف عليها، وخاصة في القرن التاسع عشر. ويقول فيليب دي طرازي إن المستشرقين في منتصف القرن التاسع عشر قد تهافتوا على هذه المؤسسات عندما شعروا بنية الحكومة المصرية جمع مجموعات الكتب المتناثرة في مكتبات المساجد في مكان واحد، وأغروا القائمين عليها بالمال، واستولوا على الكتب القيمة الموجودة في هذه المكتبات. وعلى الرغم من أن محمود سامي البارودي الذي كان يعمل ناظرًا للأوقاف عام ١٢٩٧ هـ / ١٨٨٠ م قد نقل هذه المكتبات إلى دار الكتب المصرية، فإن الموظفين الذين ذهبوا إلى هذه المؤسسات لم يجدوا بها سوى الأرفف الخالية. وعندما ذهبوا إلى جامع الأمير الاستادار (المدرسة المحمودية) في قصبة رضوان بالقاهرة، وجدوا أن الخزائن التي كانت ممتلئة بالكتب القيمة في فترات سابقة قد أفرغت تماماً ولم يبق منها شيء^{٨٩}.

85 Stephan Roman: a.g.e., s. 86, 87.

٨٦ عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في تراجم الأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ج ١، القاهرة، ١٩٩٨ م، ص ١١.

87 Nelly Hanna: "Cultural life in Mamluk households (late Ottoman period)", The Mamluks in Egyptian politics and society, yay. haz. Thomas Philip-Ulrich Haarman, Cambridge 1998, s. 197, 198.

88 Avihai Shviti: "The Arabic Manuscripts at the University of Cambridge and Position of the Cairo Geniza Documents among other Collections", From Codicology to Technology, Islamic Manuscripts and their Place in Scholarship, yay. haz. Stefanie Brinkman- Beate Wiesmüller, Berlin 2009, s. 150.

٨٩ فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ١٩٢.



وهناك قسم من الكتب التي كانت تُباع لدى تجار الكتب في مصر كان يأتي من التراكات، وقسم آخر كان ينسخه النساخون والخطاطون. وهناك قسم آخر - كما نعلم من بعض الدراسات - قد أُخرج من المكتبات الوقفية بطرق متنوعة. وعلى الرغم من تعرض المكتبات الوقفية في الكثير من المدارس في القاهرة لبعض الخسائر عقب دخول العثمانيين إلى مصر، فإن من المعلوم أن هذه المكتبات استمرت في الوجود حتى القرن التاسع عشر. وقد ذكر المستشرق إدوارد ويليام لين - الذي زار مصر في بدايات القرن التاسع عشر - ملاحظة بشأن المكتبات في القاهرة، تقول: «إن أغلبية المساجد الكبيرة في القاهرة تضم بين جدرانها مكتبات كبيرة تتشكل من الكتب المتعلقة بالعقيدة والشريعة وعلوم اللغة، وهي تشكل قسمًا معتبرًا من هذه المجموعات. ولكن هذه المجموعات مهمة إلى أقصى حد وأوضاعها مزرية، وهي في طريقها للفناء بشكل متسارع بسبب عدم مبالاة الموظفين والقراء بشكل كبير وسوء أخلاقهم»^{٩٠}.

أما فيليب دي طرازي، فقد صوّر أوضاع المكتبات الوقفية في القاهرة في القرن التاسع عشر، فقال: «وعلى الرغم مما أصاب مكاتب القاهرة من النهب والسلب والحريق والتدمير على توالي العصور فقد بقي في مدارسها وجوامعها وأديرتها من المخطوطات ما يحصى بعشرات الألوف. وبينها طائفة عظيمة من نواذر الأسفار تعتبر آية الآيات بجمال الخطوط وجودة الورق وإتقان التجليد، فإنها كانت مهمة؛ إذ تولاها حفاظ من أفقر الناس، يجهلون قيمتها، ولا يدركون خطورتها، فباعوا منها قسمًا صالحًا بأبخس الأثمان. ويُروى عن هؤلاء حكايات كثيرة تدعو إلى التأثر والتأسف، لأنهم بجهلهم وإهمالهم وطمعهم وقلة أمانتهم أفقدوا الأمة ثروة كبيرة قد اشتغل السلف في تأليفها وترجمتها ونساختها وجمعها وتنظيمها قرونًا عديدة»^{٩١}.

ويعطي طرازي مثالًا واقعيًا على من تولّى رئاسة هذه المكتبات في عهد الخديوي عباس، فيقول: «في مطلع ولاية الخديوي عباس الأول عام ١٨٤٨ م حصر ديوان الأوقاف المصرية مكاتب القاهرة تحت إدارته، وعيّن بها حفاظًا يعيرون الكتب لمن يرغب في مطالعتها. ولكنه أساء إلى تلك المكاتب بتعيين حفاظ من أجهل الناس وأفقرهم، ثم تركهم وشأنهم بلا رقابة، وخصص مرتبات يسيرة هي والعدم سواء. فقد عهد مثلاً بمكتبة مدرسة السلطان حسن ومكتبة أزبك بن ططخ ومكتبة مدرسة خوند بركة قايتباي المحمودي إلى خازن فقير الحال ساقط الأخلاق يدعى «ابن السليماني»، وجعل له ديوان الأوقاف راتبًا شهريًا قدره خمسة وعشرين قرشًا لأجل خدمة المكاتب الثلاثة المذكورة والإشراف عليها، فصار هذا الخازن الجاهل الفقير المؤتمن على تلك الذخائر الغالية دون رقيب عليه يبيع قصب السكر في زاوية تحت سلم مدرسة السلطان حسن، وكان يضع بجانب القصب مجموعة من مخطوطات تلك المكاتب الثلاث لبيعها ببيع قصب السكر ويتصرف بأثمانها. فتأتى له أن يجازف في زمن قصير بجانب كبير من تلك الجواهر اليتيمة ليسد بها جوعه وجشعه. وكان خدمة بعض المساجد يحملون إلى الأسواق سلالًا مملوءة بالمخطوطات القديمة يبيعونها

90 An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, Written in Egypt During the Years 1833, -34, and -35, c. I, London, 1871, s. 263.

٩١ فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ١٨٩، ١٩٠.



للبقالين والللّحامين والعطّارين وباعة الفاكهة، كي يلفوا سلعهم بأوراقها»^{٩٢}.

وعلى الرغم من وجود مكتبات في كثير من المدارس والجوامع في القاهرة في الفترة العثمانية^{٩٣}، فإن أهم هذه المكتبات كانت مكتبة الجامع الأزهر. ومن المعروف أن جوهر الصقلي قد أنشأ الجامع الأزهر في القاهرة عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م بعد عام من استيلاء الفاطميين على القاهرة، وقد تأسست هذه المكتبة عندما حوّل العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥: ٣٨٦هـ / ٩٧٥: ٩٩٦م) الجامع الأزهر إلى مدرسة^{٩٤}. وبحسب ما نقله المقرئزي، فإن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله قد نقل نصف الكتب الموجودة في دار العلم إلى الجامع الأزهر^{٩٥}. ومن المؤكد أن هذه المكتبة قد تضررت بسبب الاضطرابات الداخلية التي حدثت بعد سقوط الدولة الفاطمية.

وبعد دخول العثمانيين إلى القاهرة، فمن المؤكد أنهم سعوا إلى الحفاظ على المكتبات القائمة فيها؛ ففي حكم مؤرخ بتاريخ ٦ جمادى الآخرة عام ٩٨٢هـ / ٢٣ سبتمبر ١٥٧٤م، أمر بهدم المنازل التي أقيمت بشكل غير شرعي بجوار المكتبة الواقعة في الجامع الأزهر الشريف، وطلب أن يهتم أمير أمراء مصر بنفسه بهذا العمل^{٩٦}. وفي حكم مؤرخ بتاريخ ٢٠ ذي القعدة ٩٩٢هـ / نوفمبر ١٥٨٤م، ذكر أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد أوقف عددًا من الكتب على الجامع الأزهر في مصر^{٩٧}. كما أوقف الشيخ حسين أفندي ٢٣٦ مجلدًا على الأزهر، ووضعها في خزانة بالجامع خصّصها لأهالي الشام الشريف، واشترط أن يستفيد منها الطلاب من أهالي الشام^{٩٨}. ومع مرور الوقت، تشكّلت مكتبات في كثير من أروقة الجامع الأزهر الشريف.

ولكن هذه المكتبة تعرضت لخسائر كبيرة بسبب عدم العناية بالكتب الموجودة بها. وأوضح السائح الفرنسي فوليني -الذي زار القاهرة أواخر القرن الثامن عشر- أن إحدى المجموعات داخل تلك المكتبة كانت تتكون من مؤلفات قيمة، وأن القراء كانوا يتبادلون تلك المؤلفات طوال اليوم، ولكن لم يكن يُسمح للمسيحيين بلمس هذه الكتب. وبحسب فوليني، فإن مائتا كتاب من هذه المجموعة كانت قد انتقلت -قبل اثنتي عشرة عامًا- من يد أحد رهبان كنيسة مار حنا، عن طريق أحد الأشخاص الذي أسس علاقة صداقة

٩٢ فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ١٩٠.

٩٣ ناصر عبد الله عثمان: قبل أن يأتي الغرب، مرجع سابق، ص ١١٠.

94 Ghulam Ali Allana: "Development of Libraries During the Fatimid Caliphate in Egypt", Sind Quarterly, c. 14/4 (1986), s. 31.

٩٥ حسن إبراهيم حسن وآخرون: الأزهر تاريخه وتطوره، القاهرة، ١٤٠٣هـ، ص ٢٢٥.

96 BOA. Mühimme Defteri 26, s. 220

حكم مؤرخ بتاريخ ٦ جمادى الآخرة ٩٨٢هـ / ٢٣ سبتمبر ١٥٧٤م.

97 BOA. Mühimme 55, s. 48.

98 Evkaf-ı Hümayun Müfettişliği 213, s. 15a-b.



معه^{٩٩}. وفي عام ١٨٣٥م أُجري إحصاء للكتب الموجودة في مكتبة الأزهر والأروقة التابعة لها، بناء على طلب نظارة الأوقاف. وتبين منه أن المكتبة كانت تضم ١٨٥٦٤ كتابًا، ما بين مخطوط ومطبوع^{١٠٠}.

ولكن من المؤكد أن هذه الكتب قد فُقدت في مدة قصيرة؛ ذلك أن السائح الإنجليزي بيرتون -الذي زار ذلك المسجد في منتصف القرن التاسع عشر- كتب أن خزانات الكتب كانت فارغة تقريبًا، وأوضح أسباب فقدان تلك الكتب، قائلاً: «كانت القاهرة مشهورة في فترات سابقة بمكتباتها الرائعة. وبجانب مكتبات القاهرة الخاصة كانت توجد مكتبات عند المساجد الكبيرة مملوءة بالكتب الموجودة عليها عبارة «وقف» أو «وقف لله تعالى». ولكن ظلت القاهرة لسنوات عديدة تُوفر الكتب لدول أخرى. ودفع ضعف الوازع الديني الأشخاص الذين لا يلتزمون بالأصول إلى سرقة تلك الكتب وبيعها، رغم أنها تحمل العبارات الدالة على أنها كتب موقوفة. وتدفقت الكتب مثل السيل من مصر إلى منطقة الحجاز خاصة. وحتى الآن توجد مكتبات غنية في القاهرة، ولكن هذه المكتبات هي مكتبات خاصة لن يأذن أصحابها بإعارة الكتب لمن يطلبها أو لمن يحاول الاستفادة من هذه المكتبات. وكان شهر رمضان يُمثل الفرصة الأهم لبيع الكتب؛ ففي هذا الشهر كانت الكتب تُعرض للبيع في الجامع الأزهر. وإلى جانب عدم تمكن المستشرقين من إيجاد الكتب القيمة، فإنهم كانوا يتعرضون لتعكر مزاجهم بشكل سيء؛ بسبب اضطرارهم لمقابلة ومواجهة النساخ وبائعي الكتب الأسافل المنحطين»^{١٠١}.

وفي مقابل ما ذكره بيرتون عن مراعاة سكان المدينة لشروط الوقف، أشار إلى موقف مختلف لدى أهالي مصر، قائلاً: «لا يتورعون ولو لحظة عن بيع أي كتب موقوفة»^{١٠٢}.

وكان عدم الاهتمام بحماية الكتب وصيانتها واحدًا من الأسباب المهمة لفقد الكتب في مصر؛ فقد تحدث أوليا جلبي عن المكتبة الموجودة في دير استيفان في المجر، قائلاً: «أي مكتبة عظيمة تلك، واجب على كل أحد أن يراها». عقد مقارنة بين هذه المكتبة وبعض المكتبات في مصر وإسطنبول، فقال: «لا يوجد مثل مجموعة الكتب هذه في أي من الديار، إلا ما كان في مصر في مسجد السلطان برقوق، وفي إسطنبول في مسجد السلطان الفاتح والسلمانية ومسجد السلطان بايزيد والمسجد الجديد، فحساب هذه الكتب التي توجد بها وعددها لا يعلمه إلا الله تعالى رب العالمين. ولكن هذا أكثر في دير استيفان في «بيجه». والآن يا عزيزي خير الكلام ما قل ودل؛ ففي هذا الدير سبعون أو ثمانون خادماً يقومون بتنظيف تلك الكتب مرة واحدة كل أسبوع. وفي مقابل ذلك، هناك مسجد عظيم يُسمى «جامع العطارين» يوجد في الإسكندرية في مصر، إلا أن مكتبة المسجد تحوّلت إلى خراب؛ وذلك على الرغم من وجود ما يقارب المائة حانوت،

99 M. C-F. Volney, a.g.e., s. 449.

١٠٠ طه الولي: المساجد في الإسلام، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٦٨.

101 Richard F. Burton: Personal Narrative of a Pilgrimage to el-Medinah and Meccah, c. I, London, 1855, s. 147, 148.

102 Richard F. Burton: a.g.e. c. II, s. 290.



وخان، وحمام، ومخزن، والكثير من الخيرات. وكانت مكتبة المسجد تشتمل على ألف مجلد، ولكن هذه الكتب تعرضت للتلف والاهتراء بسبب سقوط الأمطار عليها. وكانت هذه الكتب تضم عددًا من المؤلفات المعتمدة المكتوبة بخط الخطاطين الكبار، مثل: ياقوت المستعصمي، وعبد الله القريمي، وشمس الله الغمراوي، والشيخ الجوشي. وفي كل صلاة جمعة تستمع إلى صدى أصوات الأرضة والفئران والعنة التي أكلت كتب الله تعالى المذكورة التي وصلت إلى ذلك المسجد. وليس لأحد أن يدعي أنه من أمة محمد ولا يسعى أن يكون وسيلة لحماية هذه الكتب من التلف. ومن يكون على تلك الحال فليس لديه حب لكتاب الله بقدر حتى ما لدى هؤلاء الكفار الذين يحافظون عليها في مكتباتهم»^{١٠٣}.

واستمر هذا الإهمال وعدم العناية بالكتب في الفترات اللاحقة، ويدل على ذلك ما ذكره أليوس سبرنجر Aloys sprenger (١٨١٣ : ١٨٩٣ م)، المؤرخ البروسي الذي تجوّل في مناطق الشرق الأوسط، مثل: سوريا وعمان والعراق ومصر، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واشترى نحو ألف مخطوطة، إذ قال: «لم يعد بإمكان الشعوب الشرقية الحفاظ على الأعمال التي تُشكل ثقافتهم. وبما أن الكتب القديمة لا تحظى بأية قيمة على الإطلاق، فإن هذه الكتب سوف تذهب أدراج الرياح بسرعة. لذا فالواجب على كل فرد أن ينقذ أكبر عدد من الكتب كلما أمكنه ذلك وأتيحت له الفرصة»^{١٠٤}.

وقد لفتت نصيحة سبرنجر هذه انتباه نظرائه، الذين استوعبوا مضمونها بوضوح، فاشترى - في النصف الأول من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين - الكتب الموجودة في الكثير من المناطق الإسلامية، وعلى رأسها مصر، من أسواق الكتب، أو من خلال إفراغ بعض المكتبات الوقفية من محتوياتها بالتفاهم مع العاملين فيها، ثم نقل تلك المحتويات إلى بلادهم. ويبدو أن نشاط تجار الكتب المصريين قد أكسب تجارة الكتب أبعادًا عالمية. وفي عام ١٩٢٤ م، نهب تاجر كتب مصري ٢٨٨ كتابًا من الكتب العربية والفارسية والتركية، وأخرجها من المكتبة الخاصة بالسلطان عبد الحميد الثاني، وبيع قسم منها إلى مكتبة جامعة ميتشجان، وقسم آخر إلى المجموعة البريطانية^{١٠٥}.

وبحسب ما يتضح من المعلومات التي سبق ذكرها، فإن الكتب قد تعرضت لخسائر معتبرة في مصر بسبب عدم وجود نظام رقابي جاد، واجتراء سكان البلاد على الكتب الموقوفة^{١٠٦}. وقد أسهم في وقوع هذه

103 Evliya Çelebi Seyahatnamesi: yay. haz. Yücel Dağlı-Seyit Ali Kahraman-Robert Dankoff, c. VII, İstanbul 2003, s. 103.

104 Stephan Roman: The Development of Islamic Library Collections in Western Europe and North America, London, 1990, s. 119, 120.

105 Stephan Roman: a.g.e., s. 235.

١٠٦ ويورد يحيى ساعاتي نماذج من أعمال النهب التي تعرضت لها المكتبات الوقفية في مصر وسوريا، ويذكر عددًا من العلماء الذين نقلوا الكثير من الكتب. ومنهم القاضي محب الدين أبو الفضل (ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م) الذي نقل من مكتبة المدرسة المحمودية حوالي مائة كتاب. وكان من هؤلاء أيضًا أحد العلماء، ويدعى أحمد بن بدر الدين من شعبان، وكان يمتلك مجموعة غنية من الكتب، كان أكثرها موقوفًا. وفي دمشق، تعرضت مكتبة المدرسة الضيائية (العمرية) لخسائر



الخسائر بدرجة كبيرة عدم تعيين خازن للكتب على كثير من مكتبات المدارس التي تأسست في عهد المماليك^{١٠٧}، أو عدم كفاية عدد من عُيِّنوا لهذا الغرض. وقد ازدادت الخسائر التي تعرضت لها المكتبات المصرية بدرجة كبيرة في بدايات القرن العشرين. فقد تمكن رجل الأعمال الأيرلندي ألفرد شستربيتي بمفرده من شراء مجموعة بالغة القيمة من الكتب، يزيد عددها على ثلاثة آلاف كتاب في مختلف الفنون، في الربع الأول من القرن العشرين من مصر، وتكفي هذه المجموعة المنتقاة للدلالة على حجم الخسائر التي تعرضت لها البلاد^{١٠٨}.

واستمر خروج الكتب من مصر في فترات لاحقة؛ ففي عام ١٩٤٥م، باع محمود الإمام المنصوري -أحد كبار علماء الأزهر- خمسة آلاف كتاب لمكتبة الكونجرس الأمريكي، وكان من ضمن هذه المجموعة ١٣٧٨ مخطوطاً باللغة العربية^{١٠٩}.

فهل من الإنصاف بعد كل ذلك إلقاء اللوم على السلطان سليم الأول والسلاطين العثمانيين الآخرين وتحميلهم المسؤولية وحدهم عن الخسائر وعن قلة عدد الكتب التي وصلت إلى زماننا الحاضر، مع غض الطرف عن النهب والتخريب الذي تعرضت له مكتبات المدارس والجوامع المصرية طوال أربعة قرون؟

سوريا:

يرى بعض الباحثين أن العثمانيين قد نقلوا إلى إسطنبول ما احتوته المكتبات في مدن مثل حلب ودمشق من كتب، إضافة إلى ما نقلوه من مكتبات في القاهرة. وكتب محمد كرد علي أن بعض الولاة العثمانيين، ومنهم الوالي سنان باشا (قوجه)، قد نقلوا إلى إسطنبول حمولة ثلاثة وثلاثين صندوقاً مملوءاً بالكتب، و١٦٠ مصحفاً مزيناً بالياقوت واللؤلؤ من اليمن ودمشق والمدن الأخرى^{١١٠}.

وأخذ باحثون آخرون يرددون ادعاءات مشابهة لهذا الادعاء، دون التدليل عليها أو إظهار أية مصادر لها. فعلى سبيل المثال، قال عبد الجبار عبد الرحمن في معرض حديثه عن أكبر النكبات وأضخمها التي أصابت التراث العربي الإسلامي المخطوط: «لقد حرص السلاطين العثمانيون وسائر رجال دولتهم الاستيلاء على

كبيرة نتيجة لأن بعض العلماء الذين لا يخشون الله تعالى قد امتدت أيديهم إلى مجموعات الكتب الموقوفة في المكتبة. انظر: يحيى محمود ساعاتي: الوقف وبنية المكتبة العربية، مرجع سابق، ص ١٧٦: ١٧٨.

107 Carl F. Petry: The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages, Princeton 1981, s. 253, 254.

108 Stephan Roman: a.g.e., s. 50.

109 Stephan Roman: a.g.e., s. 215.

١١٠ محمد كرد علي: الكتب والمكاتب في الشام، أقدم الخزائن وأنفس الكتب، المقتطف ٧٤/٥، بيروت، ١٩٢٩م، ص ٥١٠.



الكنوز والذخائر الثمينة لتلك الدول والأقطار، وحملوها إلى مركز الخلافة»^{١١١}. كما لجأ بعض الباحثين الآخرين إلى التعميم، فذكروا عبارات من قبيل: «وكان من أهم ما أخرجته العثمانيون، سواء من مصر أو سائر البلاد العربية التي فتحوها، الكتب النفيسة». أو «أما القسم الأكبر من المخطوطات الموجودة في تركيا، فمصدره مصر والشام واليمن»^{١١٢}. وكانت حلب واحدة من المدن المهمة من حيث ثراؤها الثقافي في هذه المنطقة، وكانت لها مكانة مهمة في تجارة الكتب.

وفي أثناء إقامة كاتب چلبی (حاجي خليفة) في حلب، قال إنه قد بدأ في تأليف كتابه (كشف الظنون) متجولاً بين حوانيت تجار الكتب^{١١٣}. ومن المؤكد أن كتباً قيمة كانت موجودة لدى تجار الكتب في حلب، وكانت تلفت انتباه الأجانب؛ فقد كان المستشرقون من أمثال جريفز وبوكيه وجوليس وورنر وتوماس يزورون حلب مراراً وتكراراً في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وإلى جانب شرائهم الكتب من تجار المدينة، فقد أمّنوا تدفقاً منتظماً للكتب إلى بلادهم من خلال العلاقة التي أسسوها مع بعض السكان المحليين^{١١٤}.

وكتب هانتنجتون أنه اشترى نحو ٦٠٠ مخطوط من هذه المدينة في مدة قصيرة لم تتجاوز عشرة أعوام^{١١٥}. واشترى جاكوب جوليوس أستاذ اللغة العربية والرياضيات في جامعة ليدن، وإدوارد بوكيه أستاذ اللغة العربية والعبرية في جامعة أكسفورد، الكثير من المخطوطات من حلب وأرسلها إلى بلادهم، وسعياً إلى نسخ بعض الكتب التي لم يتمكنوا من العثور عليها^{١١٦}. وخلال مدة الأعوام الستة التي تواجد فيها بوكيه

١١١ عبد الجبار عبد الرحمن: تسريب التراث العربي المخطوط، مرجع سابق، ص ٥٧.

١١٢ أيمن فؤاد سيد: انتقال المخطوطات العربية إلى تركيا وأثره في توطيد الصبغة الإسلامية للخلافة العثمانية، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، مرجع سابق، ص ٢٩٤؛ وأيمن فؤاد سيد: الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥١١.

١١٣ قال أوليا چلبی ما نصه: «رأيت في أثناء الإقامة في حلب الكتب في حوانيت تجار الكتب في المدينة وشرعت في تحرير أسماء الكتب بتوفيق من الله».

Fikret Sarıcaoglu: "Kâtib Çelebi'nin Otobiyografileri", İÜ. Edebiyat Fakültesi Tarih Dergisi, no. 37, İstanbul, 2001-2002, s. 309.

114 P. M. Holt: "The Study of Arabic Historians in Seventeenth Century England: The Background and the Work of Edward Pococke", BSOAS, c. XIX/3, London 1957, s. 448, 449; G. J. Toomer: a.g.e. s. 122: 124. Halep vilayetinin iktisadî durumu hakkında yapılan bir araştırmada XIX.

وفي دراسة أجريت بشأن الوضع الاقتصادي لولاية حلب، وُجد أن عدد تجار الكتب في هذه المدينة في القرن التاسع عشر كان يبلغ تسعة عام ١٨٢٧م، وخمسة عام ١٨٢٩م. ويُظهر هذا التعداد انخفاض عدد التجار في حلب خلال عامين، انظر: Hilmi Bayraktar, XIX. Yüzyılda Halep Eyaleti'nin İktisadî Vaziyeti, Elazığ 2004, s. 103.

115 Turcksche boucken: The Oriental Collection of Levinus Warner, Dutch diplomat in seventeenth-century Istanbul, yay. haz. Arnoud Vrolijk-Jan Schmidt-Karin Schepers, Leiden, 2013, s. 110.

١١٦ بلغ نشاط نسخ الكتب درجة كبيرة من التطور في حلب. وإلى جانب الخطاطين، كان الطلاب المحتاجون الذين يدرسون في مدارس حلب يعينون أنفسهم على مواصلة دراستهم عن طريق نسخ الكتب. وقد أسهم ذلك في تطور فن



في حلب، كان يشتري جميع المخطوطات التي استطاع أن يجدها، مهما تكن اللغة التي كُتبت بها. وذكر أنه كان يتربص بفارغ الصبر القوافل القادمة من إيران ومن المناطق الأخرى لشراء الكتب المخطوطة التي كانت تحملها^{١١٧}. واستمر الدكتور بوكيه في شراء الكتب من حلب عن طريق التجار الإنجليز، مثل ريتشارد هيل وويليام كورديري، اللذين تعرف إليهما بعد ذهابه إلى إسطنبول^{١١٨}.

وفي أحد الخطابات التي كتبها الراهب الكبوشي Capucin أجاثانج دي فندومي بتاريخ ٢٥ يوليو ١٦٣٥م من القاهرة إلى العالم الفلكي الفرنسي نيكولاس كالودي فابري، أوضح فيه مدى صعوبة العثور على المؤلفات الفارسية في هذه المدينة، وأنه من الأفضل أن يجرب حظه في هذا الأمر في مدينة حلب^{١١٩}. وبينما كان رجل الدين والسائح الإنجليزي توماس كورفت (١٧٢٢: ١٧٨١م) يعيش في حلب، اشترى الكثير من المؤلفات المكتوبة باللغتين العربية والتركية. وقبل مدة قصيرة من وفاته، عرض كتبه للبيع، واستمر المزاد الخاص ببيع مكتبته، التي كانت تتكون من تسعة آلاف كتاب لمدة اثنين وأربعين يومًا^{١٢٠}. ونعلم أيضًا أن الإمام عبد الله بن سعود مؤسس الأسرة الحاكمة السعودية، أرسل في أوائل القرن التاسع عشر بعثات إلى بغداد وحلب ودمشق لشراء الكتب^{١٢١}.

وعلى عكس تلك الادعاءات فكما أن العثمانيين لم ينقلوا أيًا من كتب المكتبات الموقوفة التي كانت في حلب، فإنهم قد أنشأوا الكثير من المدارس في هذه المدينة وأسسوا مكتبات داخل بنية تلك المدارس. ومن المعلوم أن بعض هذه المكتبات كانت تمتلك مجموعة غنية من الكتب؛ فعلى سبيل المثال كان يوجد في المكتبة الأحمدية حوالي ثلاثة آلاف كتاب عند تأسيسها. أيضًا كانت المكتبات العثمانية والخسروية والرفاعية تمتلك مجموعات غنية هي الأخرى^{١٢٢}.

ولكن قسمًا مهمًا من هذه المكتبات تعرض لخسائر كبيرة بسبب إهمال المتولين وسوء استغلال أمناء

الخط في حلب، وتمكن كثير من الأشخاص من جمع ثروات كبيرة بهذه الطريقة. انظر: كامل البالي الحلبي الشهير بالغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج ١، حلب، ١٩٩١م، ص ١٤٠.

117 Leonard Twells: The Theological Works of the Learned Dr. Pocock, to which is prefixed An Account of his life and Writings never printed, c. I, London 1740, s. 7.

118 Twells: a.g.e. s. 14.

119 Correspondance de Peiresc avec plusieurs Missionnaires et Religieux de l'Ordre Capucins, Recueillie et publiée par Le P. Apollinaire de Valence, Paris, 1891, s. 155.

120 Christine Laidlaw: The British in The Levant, Trade and Perceptions of the Ottoman Empire in the Eighteenth Century, London, 2010, s. 103, 104.

١٢١ حمد بن عبد الله العنقري: مكتبات الدولة السعودية الأولى المخطوطة، مرجع سابق، ص ٣٥؛ ومثلما ذكرنا سابقًا، كان النجديون الذين شاركوا في نهب المكتبة العميرية من بين هذه الجماعات.

١٢٢ سهيل ملاذي: المكتبات في حلب، عاديات حلب، ج ٨، ٩، حلب ١٩٩٨م، ص ٣٧٦، ٣٧٧؛ انظر أيضًا: كامل البالي الشهير بالغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، مرجع سابق، ج ١، ص ١٤٣، ١٤٤.



المكتبات، وجمعت الكتب المتبقية في مكتبة المدرسة الخسروية. وقد هيأت تجارة الكتب الرائجة في تلك المدينة الظروف الملائمة لبيع عدد كبير جداً من الكتب القيمة الموجودة في المكتبات الوقفية عن طريق تجار الكتب. وأصبح الأجانب الساعون خلف الكتب القيمة والمهتمون بها من المشتريين الدائمين في هذه الأسواق.

وينقل الغزي (١٨٥٣: ١٩٣٣ م) عن أوضاع المكتبات في حلب، فيقول تحت عنوان: «المكتبات القديمة المفقودة»: «أدركنا في حلب عدة مكتبات غنية بالكتب المخطوطة النادرة، تسلط عليها لصوص الكتب فسلبوها كل ما حوته من الطرف والتحف. وإننا منذ زمن الصبا حتى الآن، نرى تجار الكتب المخطوطة يترددون إلى حلب، ويملاؤون من مكتباتها الصناديق الكثيرة، عدا ما نراه من سواح الغرب وسماسرة المستشرقين الذين يختطفون الكتب النفيسة الخطية من أيدي طائفة من البسطاء لا يفرقون بين الطين والعجين، فيشترونها بأبخس الأثمان»^{١٢٣}.

وقد تعرضت مكتبات الوقف في حلب لخسائر كبيرة، وخاصة في القرن التاسع عشر^{١٢٤}. فعلى سبيل المثال، تجاوز عدد الكتب في المكتبة التي أسسها القاضي أحمد أفندي في المدرسة المسماة باسمه (ت ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣: ١٧٦٤ م) ثلاثة آلاف كتاب في القرن التاسع عشر. وبحلول عام ١٩٤٩ م، انخفض عدد الكتب في هذه المكتبة إلى ١٤٧٢ كتاباً^{١٢٥}. وبلغ عدد الكتب في مكتبة المدرسة العثمانية -التي تأسست عام ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م- ألفي كتاب في أواخر القرن التاسع عشر، وفي بدايات القرن العشرين انخفض هذا العدد أولاً إلى ١٥٥٧ كتاباً، ثم إلى ١٢٤٢ كتاباً بعد ذلك^{١٢٦}. ولقيت المكتبات الوقفية الأخرى المصير نفسه^{١٢٧}.

وفي حديث الشيخ راغب الطباخ عن المكتبة الخسروية قال: «إنها لم تستطع أن تتخلص من النهب مثل مكتبات المدارس والجوامع والتكايا الأخرى التي في حلب»^{١٢٨}.

١٢٣ كامل البالي الشهير بالغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧١.

١٢٤ لقد وصل نهب الكتب في المناطق الأخرى -وليس في حلب وحدها- إلى نطاق واسع، ذلك أن صحفياً في إسطنبول -وهو بصيرتجي علي أفندي- كتب في إحدى مقالاته يقول: «في الرسالة التي أرسلها صديقي العزيز هذا الأسبوع والموجود في بغداد إلى عبدكم الضعيف ذكر أن إحدى مكتبات السلاطين العظام قد نقصت مائة كتاب من الكتب النفيسة، وهذا بعض مما حدث في المكتبات الأخرى -مع شديد الأسف- وهو أمر لا مراء فيه». انظر:

Istanbul Mektupları, haz. Nuri Sağlam, İstanbul 2001, s. 438.

١٢٥ سهيل ملاذي: المكتبات في حلب، مرجع سابق، ص ٣٧٥؛ ومحمود فاخوري: المكتبات في حلب من العصر العثماني إلى اليوم، عاديات حلب، ج ٨، ٩، حلب، ١٩٩٨ م، ص ٣٦٦.

١٢٦ سهيل ملاذي: المكتبات في حلب، مرجع سابق، ص ٣٧٦.

١٢٧ فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٠٥٨، ١٠٥٩.

١٢٨ محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج ٦، حلب، ١٩٢٣ م، ص ١٣٠. نقلاً عن: سهيل ملاذي: المكتبات في حلب، مرجع سابق، ص ٣٧٦.



وبعد أن ذكر محمد راغب الطباخ أسماء معظم المكتبات في مقاله الذي تناول فيه المكتبات الموجودة في حلب، أعرب عن حزنه بعبارة من قبيل: «إلا أنها كانت كغيرها، عرضة للنهابين»، و«إلا أنها أيضًا كانت معرضة للنهب لعدم انتظام أمرها، ففقد منها الكثير»، وبالرغم من تشدد الواقف في أمرها فإنها لم تسلم من أيدي العابثين، «ولم تسلم أيضًا من أيدي الأثيمة»، و«ولم تسلم كغيرها من المكاتب، بل امتدت إليها بعض الأيدي»، «وقد بددت كلها»^{١٢٩}. وفي مقالة لمحمد أسعد طلاس، تناول فيها الموضوع نفسه، قال: «إن مكتبات مدرسة وجامع الكواكب، والزاوية الوقائية، والتكية الإخلاصية، والمدرسة الشعبانية والدرگاه المولوية والمدرسة المنصورية والتي كانت صاحبة مجموعات غنية قد تعرضت لنفس المصير»^{١٣٠}. وعندما جمعت كل هذه المكتبات تحت سقف واحد عام ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م، تبين أن عدد المخطوطات كان في حدود خمسة عشر ألف مخطوط فقط، ويدخل ضمن هذا العدد ما أضيف إليها من تبرعات في السنوات الأخيرة^{١٣١}. ويكشف عدد الكتب التي أمكن تهريبها من حلب، المشهورة بمكتباتها الغنية في أوقات سابقة وأسواق الكتب، عن مدى اتساع نطاق النهب الذي تعرضت له.

وكانت دمشق قبل العثمانيين تحتل مكانة مهمة في تجارة الكتب، وفي العهد العثماني كان بها سوق لتجار الكتب. ونقل أوليا چلبی أن الباب الموجود في جدار القبلة في الطرف الأيمن للجامع الأموي في دمشق، كان يطل على سوق تجار الكتب والمجلدين^{١٣٢}. ونعلم أن بوكيه كان يبحث في دمشق عن بعض الكتب التي لم يجدها في حلب، وأنه حصل على المساعدة في هذا الأمر من رجل مسيحي يدعى عبد المسيح^{١٣٣}.

وقد تعرضت مكتبات الوقف في دمشق في القرن التاسع عشر للمصير نفسه الذي تعرضت له المكتبات في حلب، وأصبحت بخسائر كبيرة. وقال المؤرخ الدمشقي عبد القادر بدران (١٨٤٨: ١٩٢٧م): «إن مكتبة المدرسة العمرية كانت إحدى المكتبات القيمة في هذه المدينة، ولكن يد اللصوص امتدت إليها، وبعد ذلك سرق بعض الطلاب من نجد ما حمولته خمسة جمال من هذه المكتبة وهربوا. وأن ما تبقى في هذه المكتبة

١٢٩ محمد راغب الطباخ: «دار الكتب في حلب قديمًا وحديثًا»، مجلة المجمع العلمي العربي، ج ١٥، ٧، ٨، دمشق، ١٩٣٧م، ص ٣٠٥، ٣٠٦.

١٣٠ محمد أسعد طلاس: «المخطوطات وخزائنها في حلب»، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج ١، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٨: ٣٦.

١٣١ المرجع السابق، ص ٣٥.

132 Evliya Çelebi Seyahatnamesi: a.g.e., s. 536.

133 Twells: a.g.e., s. 14.



لا يقارن أبدًا بالمجموعة الأصلية»^{١٣٤}. وبحسب بدران، فإن مكتبة المدرسة السلیمانیة قد مُحيت تمامًا^{١٣٥}. أما ما تبقى من مكتبة المدرسة الصیغوشیة. فلم يزد على أحد عشر كتابًا^{١٣٦}.

وعندما رأى مدحت پاشا -والي سوريا- في عام ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م أن الكتب القيمة الموجودة في مدارس دمشق قد نُهبَت، ولم يبق منها إلا النزر اليسير، كتب كتابًا إلى مقر السلطنة في إسطنبول يطلب فيه جمع كل الكتب الموقوفة والمشروطة الموجودة في هذه المكتبات، ووضعها في مكان واحد مخصص للانتفاع العام بها. فصدرت له إرادة بتأسيس مكتبة عمومية. فجمعت الكتب الموجودة في مكتبات المدارس العمرية، وعبد الله پاشا العظم، والسلیمانیة، وإسماعیل پاشا العظم، والمرادية، والیاغوشیة، إضافة إلى كتب مكتبات السیمیاسیة، وبيت الخطابة ومكتبة الأوقاف. ونُقلت إلى تربة الملك الظاهر^{١٣٧}، وأُعد لها فهرس، وعُيِّن لها أمناء مكتبة وبوابون^{١٣٨}، وبعد انتهاء الحكم العثماني، سُميت هذه المكتبة بالمكتبة الظاهرية.

وقال محمد كرد علي: «ومن المصائب التي أُصيبت بها الكتب أن بعض دول أوروبا -ومنها فرنسا وحكومات جرمانيا (ألمانيا) وبريطانيا وهولندا وروسيا- أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتبًا تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين. وكان القوم -ولا سيما بعض من اتسموا بشعار الدين، ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع- قد بلغ بهم الجهل والزهد في

١٣٤ عبد القادر بدران: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، دمشق، ١٩٨٦م، ص ٢٤٤. ذكر محمد علي كرد أن ناظر هذه المكتبة قد سرق الكثير من الكتب الموقوفة، وحتى الآن يوجد قسم من هذه المكتبة في منزله. انظر: محمد علي كرد: كتاب خطط الشام، مجلد ٦، دمشق، ١٩٢٨م، ص ٢٠٥. وجاء قسم مهم من الكتب القيمة الموجودة في المدرسة العمرية من المكتبة التي أسسها زين الدين المقدسي، أحد مؤلفي القرن الثالث عشر في المدرسة الظاهرية. ومع الوقت أثريت المكتبة بالكتب القيمة التي وردت إليها. وكانت تضم صفحات بخط الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب، ونسخًا قديمة للغاية من التوراة والإنجيل مكتوبة على جلد الغزال بالخطين العبري والسرياني، ونسخًا ترجع إلى القرن الثالث الهجري تحمل قيود السماع والإجازة، مكتوبة على جلد الغزال، وكانت هذه من أهم مقتنيات المكتبة. ومن يتولى رئاسة هذه المكتبة يتقدم على رؤوس المكتبات الأخرى، وكان متولو هذه المكتبة ونظارها يتصرفون فيها كما يشاءون. وبحسب ما يروى، فإن مجموعة من الأفراد قدمت من نجد، ورشت ناظر المكتبة وخدعته، ثم سرقت في منتصف الليل حمولة أربعة جمال من الكتب ونقلتها إلى أحد دور الحنابلة في تلك المدينة. وحتى اليوم، من الممكن أن نجد كتبًا في نجد مكتوبًا عليها: «وقف المدرسة العمرية». وعقب وقوع مثل هذه الأحداث، سعى مدحت باشا إلى توحيد جميع مكتبات المدينة، وأسس مكتبة عامة. ولكن عندما شعر ناظر هذه المكتبة بهذه المساعي، ذهب إليها واختار أكثر الكتب نفاسة وقيمة وحملها إلى منزله، وأغلق أبواب المدرسة. وأمكن نقل ٦٦٢ كتابًا فقط من هذه المكتبة الغنية إلى المكتبة العامة. واليوم يمكن أن نجد الكثير من الكتب التي أخرجت من هذه المكتبة في مكتبات مختلفة. انظر: محمد مطيع حافظ: المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها أبي عمر حمد من أحمد المقدسي الصالح، دمشق، ٢٠٠٥م، ص ٣٧٨، ٣٨٧.

١٣٥ المرجع السابق، ص ٢٦٦.

١٣٦ محمد بسام العش: دمشق بين الماضي والحاضر، دمشق، ٢٠٠٦م، ص ١٥٩.

١٣٧ سما زكي المحاسني: «دار الكتب الوطنية الظاهرية في دمشق»، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، ج ٣/٣، لندن، ١٩٨٣م، ص ١٠٤، ١٠٥.

١٣٨ عبد القادر بدران: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، مرجع سابق، ص ١١٩، ١٢١.



الفضائل أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب، فخانوا الأمانة واستحلّوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف فيه كأنه ملكهم»^{١٣٩}. أيضاً ما ذكره فيليب دي طرازي عن زيارة يوسف سمعان السمعاني العديد من الدول العربية وجمع ما تيسر له من المخطوطات النادرة في اللغة العربية والسريانية والقبطية من مدن مثل: دمشق وحلب والقدس ولبنان وصعيد مصر. وشحن ثلاث سفن من المخطوطات وعاد بها قاصداً روما ليضعها في مكتبة الفاتيكان. ولكن لسوء الطالع غرقت سفينتان من تلك السفن الثلاث، وبها ما لا يقل عن عشرات الألوف من المجلدات، وكان ذلك في عام ١٧٦٨ م^{١٤٠}.

وشكّل مارتن هارتمان (١٨٥١: ١٩١٨ م) مجموعة غنية من الكتب التي اشتراها من هذه المنطقة، واشترت المكتبة الملكية في برلين هذه المجموعة^{١٤١}. وكان لدى محمد كرد علي قناعة بأن أغلبية الكتب في مكتبة برلين قد أحضرت من هذه المنطقة^{١٤٢}. أما بوريس ليبيرنز فقد حدّد في مكتبتي برلين وليبزج ما يزيد عن ٢٥٠٠ كتاباً اشترت من منطقة سوريا^{١٤٣}. ورأينا كيف أن نقل المخطوطات في منطقة حلب إلى الخارج قد استمر حتى في النصف الثاني من القرن العشرين؛ ففي أعوام الستينات اشترت جامعة كاليفورنيا إحدى المجموعات الغنية من حلب لمكتبتها^{١٤٤}.

الحجاز:

كان الوضع في مكة والمدينة -أهم مدينتين في العالم العربي والإسلامي- يختلف قليلاً عن الأوضاع في المناطق الإسلامية الأخرى. فمنذ أن دخلت هاتان المدينتان تحت الإدارة العثمانية، سعى السلاطين العثمانيون ورجال الدولة والعلماء إلى تأسيس المكاتب والمدارس والمكتبات وغيرها من المؤسسات العلمية؛ بهدف تنمية الحركة العلمية والثقافية في هاتين المدينتين المقدستين لدى جموع المسلمين. وقد تأسست مكتبات كثيرة في هاتين المدينتين، وبخاصة في المدينة المنورة، من خلال الكتب التي جلبت من

١٣٩ محمد علي كرد: كتاب خطط الشام، مرجع سابق، ج ٦، ص ١٩٨، ١٩٩.

١٤٠ فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ١٠٣٠، ١٠٣١؛ يحيى وهيب الجبوري: الكتاب في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣١٧.

١٤١ فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ٦٢٦، ٦٢٧.

١٤٢ محمد كرد علي: مصائب الكتب والمكاتب في الشام، المقتطف، ٧٤ / ٤، بيروت، ١٩٢٩ م، ص ٣٨٧.

143 "The Library of Ahmad al-Rabbat. Books and their Audience in 12th to 13th/18th to 19th Century Syria", Marginal Perspectives on Early Modern Ottoman Culture: Missionaries, Travellers, Booksellers, yay. haz. Ralf Elger- Ute Pietruschka, Halle (Saale) 2013, s. 21.

وفي مقالته التي درس فيها الكتب والقراء في مكتبة أحمد بن الرباط، تبين أن المئات من الكتب التي كانت تضمها المكتبة -والتي تفرقت بعد وفاته- انتقل قسم منها إلى برلين وليبزج، وقسم آخر إلى لندن وهارفرد، ولم يبق في دمشق منها سوى بضعة كتب. ويكفي ذلك لبيان حجم الضرر الذي تعرضت له مكتبات هذه المنطقة قياساً على ما حدث لهذه المكتبة.

144 Stephan Roman: a.g.e., s. 238.



إسطنبول. ولهذا السبب، لا يصح القول إن مجموعات الكتب الموجودة في هاتين المدينتين كانت تُنقل إلى إسطنبول على نحو عام.

ومن المعلوم أنه تكوّنت في فترة مبكرة مجموعات من الكتب في الروضة المطهرة بالمدينة المنورة، إلا أن كثيرًا من هذه المجموعات تعرض لخسائر كبيرة بسبب الإهمال والحرائق التي نشبت هناك^{١٤٥}. وفي عهد العثمانيين بدأت في نهايات القرن السادس عشر جهود حثيثة لحماية الكتب الموجودة في الروضة المطهرة بالمدينة المنورة. ففي أحد الأحكام المرسلة إلى أمير أمراء مصر بتاريخ ٢٧ جمادى الآخرة ٩٩٦هـ / ٢٤ مايو ١٥٨٨م، طلب منه إرسال الأخشاب لإنشاء مكتبة مرتفعة، ووضع خزائن خشبية فيها، وذلك بسبب ظهور الأرضة والعتة في الحرم الشريف بالمدينة المنورة، اللتين كانتا تتغذيان على الكتب^{١٤٦}.

ومنذ أوائل القرن السابع عشر، بدأ تأسيس المكتبات في المدينة على أيدي رجال الدولة العثمانية والمنتسبين إلى الطبقة العلمية. وكانت مكتبتا مدرسة قره باش ومدرسة صاقيزلى من أهم المكتبات التي تأسست في تلك الفترة. وفي القرن الثامن عشر تأسست مكتبة الشافعية على يد شيخ الإسلام فيض الله أفندي^{١٤٧}، ومكتبة مدرسة حاجي بشير أغا على يد أغا دار السعادة حاجي بشير أغا^{١٤٨}، ومكتبة مدرسة الحميدية على يد السلطان عبد الحميد الأول^{١٤٩}. وفي القرن التاسع عشر، أسس السلطان محمود الثاني مدرسة حملت اسمه بجوار باب السلام، وأسس مكتبة بجانب هذه المدرسة عام ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م^{١٥٠}. أما أهم مكتبة تأسست في عهد العثمانيين، فكانت مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، والتي أسسها عام ١٢٧١هـ / ١٨٥٥م^{١٥١}.

145 Abbas Saleh Tashkandy: A Descriptive Catalogue of the Historical Collection of the Scientific Manuscripts at the Library of 'Arif Hikmat in Madine, Saudi Arabia, basılmamış doktora tezi, University of Pittsburgh 1974, s. 10, 11.

146 BOA. Mühimme Defteri 62, s. 276.

147 İsmail E. Erünsal: Osmanlı Vakıf Kütüphaneleri, Ankara, 2008, s. 178.

148 VGMA. 638, s. 141, 142.

149 BOA. Mühimme-i Mısır 13, s. 41, 42, 47, 54; BOA. HMH. 6737/1.

150 BOA. Hatt-ı Hümayun 26 913. Ayrıca bkz. O. Spies, "Die Bibliotheken des Hidschas", ZDMG. 90 (1936), s. 96: 98.

حمادي علي محمد التونسي: المكتبات العامة بالمدينة المنورة ماضيها وحاضرها، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ١٩٨١م، ص ١، ٢.

151 Mustafa L. Bilge: "Ârif Hikmet Kütüphanesi", DİA. III, İstanbul 1991, s. 366: 376; Bilal Kemikli: "Şeyhülislam Arif Hikmet Beyefendi'nin Vakfiyesi ve Medine-i Münevvere'de Tesis Ettiği Kütüphanesi", Revak, no. 5, Sivas 1994, s. 51: 58; Aynı yazar: Şâir Şeyhülislâm Ârif Hikmet Beyefendi, Hayâtı-Eserleri-Şiirleri, Ankara 2003, s. 87: 95.



وإلى جانب هذه المكتبات، أسس العثمانيون بعض المكتبات الصغيرة، مثل: العرفانية، وأمين پاشا، وناظر كيلی Kili Nâzırı، ورباط سيدنا عثمان، والإحسانية، وحسين أغا. وكانت هناك أوقاف الكتب خُصّصت لوضعها في الخزانات الموجودة في أقسام مختلفة من الروضة المطهرة^{١٥٢}. وقد بلغ عدد المكتبات الموقوفة في المدينة أربع عشرة مكتبة، وفقًا لما ذكره أو سبيس O. Spies^{١٥٣}. أما الأمير شكيب أرسلان، الذي زار المدينة عام ١٩١٤م، فذكر أن عددها بلغ سبع عشرة مكتبة^{١٥٤}. وبحسب سالنامه الحجاز الخاصة لعام ١٣٠٥هـ / ١٨٨٨م، كان عدد الكتب الموجودة في هذه المكتبات يبلغ ٢٢٩١٤ كتابًا^{١٥٥}. أما إبراهيم رفعت، فيذكر أن عددها بلغ ٢١٨٥٥ كتابًا^{١٥٦}.

وأعطى العثمانيون أهمية كبيرة لحماية المجموعات الموجودة في هذه المكتبات وصيانتها؛ ففي عام ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م، أرسل خمسة من المجلدين إلى المدينة لتجليد الكتب الموجودة في هذه المكتبات وإصلاح ما تمزق واهترئ منها، وقد جلد هؤلاء المجلدون سبعة آلاف كتاب^{١٥٧}. وعلى الرغم من كل هذا الاهتمام الذي أبداه العثمانيون، فإنه لم يكن من اليسير حماية الكتب الموجودة في هذه المكتبات. وبحسب ما نفهم من حكم مؤرخ بتاريخ رجب ١٢٤٧هـ / ديسمبر ١٨٣١م، أرسل إلى شيخ الحرم وقاضي المدينة، وبقيت نسخة واحدة من البخاري الشريف في المكتبة الحميدية، وضاعت الكتب الأخرى. ولكن تكوّنت في هذه المكتبة مجموعة بلغت ٥٠٣ مجلدًا من خلال الكتب الواردة من بعض المناطق^{١٥٨}. وينقل عبد الله عبد الجبار أن: «تجار الكتب قد نقلوا آلاف المخطوطات من المدينة إلى دول آسيا وأوروبا وباعوها بأسعار زهيدة»^{١٥٩}.

١٥٢ على سبيل المثال، عام ٢٢ رجب ١٢٠٨هـ، وضع ولي الدين زادة محمد أمين أفندي ٢٦٠ كتابًا مجلدًا في مكان مناسب قرب المنارة الرئيسية في الحرم الشريف وأوقفها. انظر:

UGMA. 743., s. 97: 109.

153 Otto Spies, a.g.m, s. 93.

١٥٤ أمير شكيب أرسلان: «مكتبات المدينة المنورة»، مجلة المجمع العلمي العربي، ج ٢٥، دمشق، ١٩٥٠م، ص ٤٩٤، ٤٩٥.

155 Hicaz Vilayeti Sâlnâmesi, Sene-i Hicriye 1305, Mekke-i Mükerrerme, s. 237: 239.

١٥٦ إبراهيم رفعت: مرآت الحرمين، القاهرة، ١٩٢٥م، ص ٤٢٣.

157 Eyüp Sabri Paşa, Mir'âtü'l-Haremeyn, c. II, İstanbul 1304, s. 767.

158 BOA. Mühimme-i Mısır 13, s. 54; BOA. H. H. 27 457-C.

في إحصاء بتاريخ ذي القعدة ١٢٤٧هـ / إبريل ١٨٣٢م، تبين وجود نقص في هذه المكتبة بلغ ٤٠٣ كتابًا، من بينها كتب نفيسة وغير نفيسة، كاملة وناقصة. انظر: BOA. Evkaf 9591, ve 9489. ويكشف ذلك عن حجم الفقد الذي تعرضت له المكتبة خلال مدة قصيرة.

١٥٩ عبد الله عبد الجبار: التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١٩٣. أيضًا انظر: حمادي علي محمد التونسي: المكتبات العامة بالمدينة المنورة ماضيها وحاضرها، مرجع سابق، ص ١١.



ومن المعروف أنه كانت توجد بعض الكتب الموقوفة على الحرم الشريف في الفترات الأولى من الإسلام^{١٦٠}. فقد أسّس الأمير شرف الدين إقبال الشرايبي مدرسة عام ٣٦٧هـ / ٩٧٨م بجوار باب السلام عند الكعبة المشرفة. ومن المؤكد أن الكتب الموزعة في أماكن متعددة من الحرم الشريف قد جُمعت في مكان واحد في وقت لاحق؛ ذلك أن الأزرقى قد ذكر أن السيول التي ضربت الكعبة عام ٤١٧هـ / ١٠٢٦م قد وصلت إلى المكتبة وألحقت أضرارًا بعدد كبير من الكتب^{١٦١}. وأسّس الأمير شرف الدين إقبال الشرايبي -أحد رجال الخليفة العباسي المستنصر بالله- مدرسة أخرى في المكان نفسه، وأوقف عددًا كبيرًا من الكتب عليها عام ٦٤١هـ / ١٢٤٣م. أما السلطان المملوكي قايتباي، فقد أنشأ مدرسة ورباطًا ومكتبة بجانب الكعبة عام ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م^{١٦٢}.

ورأينا أن الكتب التي كانت في الحرم الشريف قد جُمعت في مكان واحد له قبة بجانب بئر زمزم في فترة من الفترات. ولكن كثيرًا من هذه المكتبات اندثر لأسباب مختلفة. ونقل قطب الدين النهروالي، أحد مؤلفي القرن السادس عشر، أن الكثير من المخطوطات النفيسة الموجودة في مكتبة مدرسة الأشرفية في مكة قد فُقدت بسبب إعارتها، وأنه لم يبق في المكتبة سوى ثلاثمائة مجلد. كما ذكر أنه قد بذل بنفسه جهودًا كبيرة لاستعادة هذه الكتب المعارة، ونجح في إعادة بعضها إلى المكتبة^{١٦٣}. ومع إنشاء المدارس في هذه المدينة في العهد العثماني، رأينا تأسيس بعض المكتبات ضمن هذه المدارس. وكانت توجد كتب موقوفة على مدارس السلطان سليمان القانوني^{١٦٤}، وداود پاشا^{١٦٥}. ورأينا أن شيروان زاده محمد رشدي پاشا^{١٦٦}، ومحمد

160 Abbas Saleh Tashkandy: *A Descriptive Catalogue of the Historical Collection of the Scientific Manuscripts at the Library of 'Arif Hikmat in Madine, Saudi Arabia*, basilmamış doktora tezi, University of Pittsburgh 1974, s. 8, 9.

١٦١ ناصر عبد الله سلطان البركاتي: التطور التاريخي لمكتبة الحرم المكي الشريف، العصور، ج ٢ / ٢، الرياض، ١٩٨٧م، ص ٢، ٣.

١٦٢ المرجع السابق، ص ٣٢٥: ٣٢٧.

١٦٣ قطب الدين النهروالي: كتاب الإعلام بأعلام البيت الحرام، إعداد: ونسفيلد، جوتنجن، ١٢٧٤م، ص ٢٢٥.

١٦٤ قطب الدين الحنفي: تاريخ القطبي، مكة، ١٩٥٠م، ص ١٦٠، ١٦١، ١٩٨: ٢٠٠.

١٦٥ محمد علي فهيم بيومي: مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني، ٩٢٣: ١٢٢٠هـ / ١٥١٧: ١٨٠٥م، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٣٩٥.

١٦٦ يحيى محمد ساعاتي: وضعية المخطوطات في المملكة العربية السعودية إلى عام ١٤٠٨هـ، الرياض، ١٩٩٣م، ص ١٨؛ ناصر عبد الله سلطان البركاتي: التطور التاريخي لمكتبة الحرم المكي الشريف، مرجع سابق، ص ٣٢٧. أسّس محمد رشدي پاشا مكتبة بجانب مسجد عبد الله بن عباس في الطائف وأطلق عليها اسم «مكتبة عبد الله بن عباس»، وقد فقد كثير من الكتب التي كانت فيها بسبب إهمال الموظفين. انظر: يحيى محمود ساعاتي: وضعية المخطوطات في المملكة العربية السعودية إلى عام ١٤٠٨هـ، مرجع سابق، ص ١٨، ١٩؛ عبد الله عبد الجبار: التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة، مرجع سابق، ص ١٩١.



سعيد باشا^{١٦٧} قد أوقف عددًا من الكتب على المؤسسات التعليمية في مكة.

وكما أسس السلطان محمود الثاني مكتبة في المدينة المنورة، فقد كانت له بعض المحاولات لتأسيس مكتبة أخرى في مكة المكرمة. فقد ورد في أحد قيود دفاتر المهمة بتاريخ رجب ١٢٥١هـ/ أكتوبر ١٨٣٥م عن نية السلطان محمود الثاني تحقيق هذا الأمر، فقال: «على الرغم من الكثرة البالغة للمكتب التي أوقفها أصحاب الخيرات، فإنه لا توجد مكتبة مستقلة في أي مكان في مكة المكرمة»^{١٦٨}، وهذا يسبب تلف هذه الكتب وضياعها كلما انتقلت من مكان لآخر. وقد وفّقنا المولى تعالى لإنشاء مكتبة في المدينة المنورة، لذا رأينا أن نؤسس دار توقيت ومكتبة أيضًا في مكة المكرمة، مثل المكتبة ودار التوقيت اللتين أنشأناهما في المدينة المنورة في أحد المواقع المناسبة لهذا الأمر»^{١٦٩}.

ولتكوين المجموعة اللازمة للمكتبة التي أراد السلطان محمود الثاني تأسيسها، صدر الأمر بالتفتيش عن الكتب الموقوفة الموجودة بحوزة الأهالي، والإبلاغ عنها وإرسالها، إلى جانب إعداد الكتب الأخرى التي علّمت الحاجة إليها^{١٧٠}. وقد وُجد مكان مناسب للمكتبة، واختير عدد من الكتب من الخزانة الهمايونية وجُهِز للإرسال^{١٧١}. ولكن محاولة السلطان محمود الثاني تلك لم يُكتب لها أن تكتمل، وتحقق تأسيس هذه المكتبة على يد السلطان عبد المجيد عام ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م^{١٧٢}، وقد بلغ عدد الكتب فيها ما يقارب ثلاثة

167 ŞS Evkaf. Hümayun 629, s. 117b, 120a.

١٦٨ في بداية القرن العشرين، زار البتانوني المصري مكة المكرمة، وتحدث عن عدم وجود مكتبة معتبرة في هذه المدينة. انظر: محمد ليبب البتانوني: الرحالة الحجازية، القاهرة، ١٣٢٩هـ، ص ٥٢.

169 BOA. Mühimme-i Mısır 13, s. 82.

170 BOA. Mühimme-i Mısır 13, s. 82.

171 BOA. A. AMD. 1246/85.

١٧٢ لقد تأسست هذه المكتبة في بناء له قبة، أقامه الخليفة العباسي المهدي (ت ١٦٩هـ/ ٧٨٥م)، وكان هذا البناء بجوار بئر زمزم، انظر: خالد محسن حسن الجبري: الهيئة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، لندن، ٢٠٠٥م، ص ٣٠٠. وتحدث مصطفى عاشق أفندي عن هذه المكتبة في معرض حديثه عن أحداث عام ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م، فقال: «وفق الإرادة السلطانية يُخلى أحد المبنيين ذوي القباب الموجودين داخل الحرم الإلهي، ويُعمّر ويُصلح، ليقام فيه مكتبة لمكة المكرمة، تُجمع فيها الكتب النفيسة الواردة من سائر النواحي الشريفة. وبعد ترميم المبنى وإصلاح ما بداخله، تُجهّز خزائن للمكتب». انظر: مصطفى عاشق أفندي: كتاب التعطير، الجزء ٣، ص ٢٢٤ ب. وللاطلاع على عدة وثائق تتعلق بهذا الموضوع، انظر:

BOA. A. AMD. 1249/28; Evkaf 12, 420.

وبحسب ما نعلمه من بعض الوثائق، فقد أرسل السلطان عبد المجيد كتبًا في أوقات مختلفة إلى هذه المكتبة. من ذلك ما نصه: «قبل إعداد بناء المكتبة وتجهيزه رأينا إرسال ٢١٦ كتابًا بالأمر الهمايوني، وقد فُرز عدد من الكتب المتنوعة النفيسة الموجودة في الخزانة الهمايونية. وسُلم هذا المقدار من الكتب المعتبرة لإرسالها إلى مكة المكرمة». انظر:

VGMA Sultan Mecid Ahkam, s. 997: 999.

وفي عام ١٢٦٤هـ، أرسلت بعض الكتب التي رُئي أن طلاب العلوم بحاجة إليها. انظر:

BOA. İrade Mesail- iMühimme 572: 59.



آلاف كتاب^{١٧٣}.

وقد تعرضت الكتب في هذه المكتبات لضرر كبير بسبب القلاقل الداخلية في السنوات الأخيرة للحكم العثماني، وذهبت الكثير من المخطوطات القيمة إلى مكتبات الغرب، واستمر ذلك الوضع أيضًا في أوائل القرن العشرين^{١٧٤}.

ورغم كل هذه التوضيحات، فإنه ما يزال هناك بعض الباحثين يقولون إن العثمانيين نقلوا أو سعوا إلى نقل الكتب في هذه المنطقة إلى إسطنبول، حتى إنهم نهبوا المكتبات الوقفية^{١٧٥}.

وطبقًا لعبد اللطيف عبد الله بن دهب، فإنه عندما اضطرب الوضع السياسي في سوريا، وأخذت القوات العثمانية في الجلاء عنها، اختارت السلطات العثمانية أئمن المخطوطات والكتب وأندرها، مما سبق أن نقلته من المدينة المنورة إلى دمشق، ثم حملتها إلى إسطنبول، وتركت باقي تلك المخطوطات والكتب في مكانها بالقشلة في دمشق. وقد وُضعت الكتب المنقولة إلى إسطنبول في نحو ثلاثين كيسًا من الخيش، وحُفظت في مكان يقال له سرايا طوب قابي. أما المخطوطات والكتب التي بقيت في دمشق، فقد تبين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أنها تلفت عن آخرها، بسبب السيول والعواصف الرعدية التي أصابت دمشق أثناء الحرب، وما تعرضت له من نهب وسلب أثناء الاضطرابات السياسية التي شهدتها البلاد خلال الحرب

وقدم عبد الرحمن بن غالب أحد أشرف مكة عدد ٥٩١ كتابًا مجلدًا إلى هذه المكتبة. وللإطلاع على قائمة وفهرس هذه المكتبة، المؤرخين بتاريخ ٢١ ذي الحجة ١٢٧٨هـ / ١٩ يونيو ١٨٦٢م. انظر:

BOA, EV, 32721.

وقد أصيبت المكتبة بضرر كبير في السيل الذي ضرب الكعبة عام ١٢٧٨هـ / ١٨٦٢م. ولهذا السبب، جرت بعض المحاولات لنقل المكتبة إلى مكان آمن آخر. انظر:

BOA. Ayniyat 873. s. 126; Ayniyat 875, s. 36.

إلا أن هذا الأمر لم يتحقق إلا في عام ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م، حين حُوّلت إحدى الغرف الكبيرة في دائرة المديرية، المطلة على الحرم الشريف، إلى مكتبة. انظر:

BOA. Y. PRK. Um. s. 16.

وللإطلاع على التغيرات التي تعرضت لها المكتبة في القرن العشرين. انظر: محمد بن عبد الله باجودة: نشر القلم في تاريخ مكتبة الحرم، الرياض، ٢٠٠٢م.

١٧٣ عبد الله عبد الجبار: التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة، مرجع سابق، ص ١٨٨. ومن المؤكد أنه قد أثريت المكتبة وزُوِّدت مجموعتها في الأعوام التالية، وجُلِّد ٦٢٧ كتابًا يخص هذه المكتبة على يد مجلد أرسل إلى مكة في عام ١٣٠٤هـ، كما أعيد تجديد عدد ٢٥٢٥ حافظة كتب وإصلاحها. انظر:

BOA. İrade. Şura-yı Devlet, 5057.

174 Abbas Saleh Tashkandy: A Descriptive Catalogue of the Historical Collection of the Scientific Manuscripts at the Library of 'Arif Hikmat in Madine, Saudi Arabia, basılmamış doktora tezi, University of Pittsburgh 1974, s. 20.

١٧٥ يحيى محمود ساعتي، الوقف وبنية المكتبة العربية، مرجع سابق، ص ١٧٦.



العالمية الأولى^{١٧٦}. أما محمد عيد الخطراوي فقال: «إن العثمانيين في أواخر حكمهم للحجاز سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م نقلوا إلى إسطنبول الأشياء الثمينة التي كانت في الحجرة الشريفة^{١٧٧}، ونقلوا موجودات مكتبة عارف حكمت إلى دمشق تمهيداً لنقلها إلى إسطنبول أيضاً. ولكن الطرق أُغلقت أمام القوات العثمانية بسبب الحرب العالمية الأولى فبقيت الكتب في الشام، ثم أعيدت للمدينة المنورة عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م. وكانت قد وُضعت هناك في تكية السلطان سليم. وفاضت مياه نهر بردي القريب من التكية في شتاء إحدى تلك السنوات الثلاث، ووصلت المياه إلى صناديق الكتب وتسببت في مسح بعض الأسطر واختلاط الأحبار، وتغيير لون الورق في بعض الكتب والمخطوطات»^{١٧٨}.

وتعرضت المجموعة الخاصة بمكتبة المسجد الأقصى في القدس لخسائر كبيرة بمرور الزمن. وفي هذا الموضوع ذكر إسحق موسى الحسيني ما يلي: «يظهر أن تجار المخطوطات من الغرباء قد سطوا على كثير من الكتب الثمينة التي أوقفها السلاطين والأمراء والأعيان. وهربوها إلى خارج البلاد في غفلة من أهلها، فهناك صناديق مليئة بالمخطوطات في جامعة هايدلبرغ في ألمانيا عليها ختم المسجد الأقصى، عدا ما تسرب إلى أوروبا وأمريكا من تراثنا الثمين»^{١٧٩}.

١٧٦ عبد اللطيف عبد الله بن دهيش: «مكتبات المدينة المنورة في العهد العثماني»، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ج ٣/ ٣، مكة، ١٣٩٧: ١٣٩٨هـ، ص ١٢، ١٣.

Abdul Latif Abdullah bin Dohaish: "Libraries of Madina-al-Munawwara (During the Ottoman Period), Pakistan Library Bulletin, c. 11/1-2, Karachi 1980, s. 9.

ويرى الدهيش في كل من المقالين أن المحاولة التي جرت من أجل تخليص مكتبة عارف حكمت من النهب وتوفير الأمن لها وتأمينها قد اتسمت بالخطأ.

١٧٧ ووفقاً لما نعلمه من إحدى الوثائق المؤرخة بتاريخ رجب ١٣٣٥هـ/ مايو ١٩١٧م فإن العثمانيين نقلوا الأمانات المقدسة التي كانت في الحجرة النبوية، مع بعض الأشياء التي كان العثمانيون قد أرسلوها خشية عليها من الضياع والنهب، فأحضروها إلى إسطنبول مع بعض المصاحف. انظر: سهيل صابان: «الأمانات المنقولة من الحجرة النبوية إلى إسطنبول»، مجلة مركز البحوث ودراسات المدينة المنورة، ج ٢، المدينة، ٢٠٠٢م، ص ١١: ٤٠. وفي وثيقة مؤرخة بتاريخ ٢٧ ذي الحجة ١٣٢٦هـ سُجلت هذه المصاحف مع بيان من أرسلها من السلاطين العثمانيين قبل ذلك إلى المدينة. انظر: سهيل صابان: «مقتنيات الحجرة النبوية الشريفة بموجب تقرير عثماني عام ١٣٢٦هـ»، مجلة بحوث ودراسات المدينة المنورة، ج ١، المدينة، ٢٠٠٢م، ص ٤٧: ٩٧. للاطلاع على نهب الكتب والأشياء القيمة التي كانت في الحجرة النبوية عند احتلال سعود بن عبد العزيز للمدينة في يونيو ١٨٠٥م. انظر: حمد بن عبد الله العنقري: مكتبات الدولة السعودية الأولى، مرجع سابق، ص ٤٤: ٤٦. وللإطلاع على الادعاءات المتعلقة بنهب القوات السعودية للمجوهرات والأشياء القيمة التي كانت في الروضة المطهرة، بعد دخولها المدينة المنورة إثر انسحاب فخر الدين پاشا. انظر: محمد حسين زيدان: الوثائق تتكلم، الدارة، المجلد الأول، الرياض، ١٩٧٥م، ص ١٨٤: ١٩١.

١٧٨ شهاب الدين أبي ثناء محمود بن عبد الله الألوسي: عارف حكمت حياته ومآثره، أعدّه للنشر: محمد العيد الخطراوي، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٤٠.

١٧٩ عبد الجليل حسن عبد المهدي: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، عمان، ١٩٨٠م، ص ٢٦٦.



المخطوطات القادمة إلى إسطنبول من المناطق العربية وإيران:

يشهد الواقع أن عددًا كبيرًا جدًا من الكتب قد جلب من الممالك العربية المختلفة، وخاصة من مصر، ليُباع لدى تجار الكتب في إسطنبول. وكان لمدن مثل القاهرة وحلب ودمشق مكانة مهمة في توفير الكتب، سواء لرجال الدولة أو العلماء أو محبي الكتب. وقد نُقل أن المولا فناري قد ترك عند وفاته مجموعة غنية تتألف من عشرة آلاف مجلد^{١٨٠}. ومن المحتمل أن مكتبته قد زُوِّدت وأُثريت من خلال رحلاته العلمية إلى مصر^{١٨١}. وقال كاتب جلبي إنه قد بدأ في تأليف كتابه (كشف الظنون) أثناء إقامته في حلب متجولاً بين تجار الكتب في هذه المدينة^{١٨٢}. وفضلاً عن ذلك، فمن المعلوم أن بعض الموظفين كانوا يأتون إلى هذه المدن لشراء الكتب لمكتبة القصر، وأن بعض رجال الدولة كانوا يأتون أيضاً لشراء الكتب لمكتباتهم الخاصة. وورد في حكم مؤرخ بتاريخ ٢٧ شعبان ٩٩٦هـ / ٢٢ يوليو ١٥٨٨م ذِكْرُ ميرزا مخدوم -الذي تُوفي وهو قاضٍ على مكة المكرمة- وكان من بين موجوداته في مصر بعض الكتب التي اشتراها للقصر^{١٨٣}.

ومنذ بدايات القرن الثامن عشر انخرط أفراد عائلة الخالدي في القدس في تجارة الكتب، واشتروا العديد من الكتب وباعوها في إسطنبول^{١٨٤}. وهناك احتمال كبير أن تكون المخطوطات الخاصة بالعديد من المكتبات الوقفية التي كانت في القاهرة قد اشترت بهذه الطريقة، واستقرت في مكتبات إسطنبول. كما أمكن شراء المخطوطات التي فقدت وتسربت من المكتبات الموقوفة عليها. واليوم، فإن الأعداد القليلة للغاية من الكتب التي تحمل ختم الوقف الخاص بالمكتبات الوقفية التي كانت في العالم الإسلامي ربما تكون من الكتب التي اشتراها الإداريون الذين كانوا يعملون في هذه المناطق، أو العلماء الذين ذهبوا إليها، أو من الكتب التي أحضرها تجار الكتب من هذه المناطق إلى إسطنبول، وبيعت في سوق تجار الكتب. فعلى سبيل المثال، قال الدكتور جاك دالاوي، المراهب العامل في السفارة البريطانية في إسطنبول في أواخر القرن الثامن عشر: «الكثير من الكتب القيمة قد أُخرجت من إيران أثناء القلاقل التي شهدتها تلك البلاد، وأُحضرت إلى إسطنبول، وبيعت لدى تجار الكتب»^{١٨٥}.

١٨٠ طاشكوبربي زاده: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تحقيق: د. أحمد صبحي الفرات، منشورات كلية الآداب، جامعة إسطنبول، ١٩٨٥م، ص ٢٥. ويجب علينا قبول هذا الرقم بحذر بسبب ضخامة الرقم بالنسبة لهذه الفترة.

١٨١ بعض الكتب التي كانت ضمن مكتبة المولا فناري توجد اليوم في مكتبة ولي الدين أفندي، انظر:

S. Ünver: Fâtih Külliyesi ve Zamanı İlim Hayatı, İstanbul, 1946, s. 3.

١٨٢ «في أثناء الإقامة في حلب رأينا الكتب في حوانيت تجار الكتب فحررت -بتوفيق الله تعالى - أسماء الكتب». انظر: Fikret Sarıcaoğlu: "Kâtib Çelebi'nin Otobiyografileri", a. g. e., s. 309.

183 BOA. Mühimme 64, s. 11.

184 Lawrence I. Conrad: "The Khalidî Library", Ottoman Jerusalem the Living City: 1517-1917, yayına hazırlayanlar, Sylvia Auld ve Robert Hillenbrand, London, 2000, s. 196.

185 Constantinople Ancienne et Modern, et Description des Côtes et Isles de l'Archipel et de la Troade, traduit de l'Anglais par André Morellet, tome premier, Paris 1797, s. 128.



وقد لعبت الحروب التي كانت بين الدول الإسلامية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر دوراً مهماً في إثراء مكتبة القصر. وعلى الرغم من إجراء السلاطين العثمانيين تنظيمات جديدة لمكتبات الوقف في المناطق المفتوحة، فإن الكتب الموجودة في المكتبات الخاصة للأمراء والحكام في تلك المناطق قد جُلبت إلى إسطنبول مع الأشياء الأخرى التي استولى عليها العثمانيون بوصفها غنائم لتلك المعارك التي خاضوها. ونعلم أن قسمًا كبيرًا من المخطوطات التاريخية القديمة ذات القيمة الفنية العالية التي وصلت إلى إسطنبول جاء كغنيمة مع خزائن الحكام الذين تعرضوا لهزائم في تلك المعارك، وكانت الكتب التي تعود إلى المكتبات الخاصة لهؤلاء الحكام تُعد من ضمن الغنائم.

وعلى هذا الأساس، أُحضرت كتب الحكام والأمراء للصفويين عقب معركة چالديران^{١٨٦}، وكتب المكتبات الخاصة للسلاطين المماليك عقب ضم مصر^{١٨٧}، وكتب أوزون حسن عقب معركة أوتلق بالي^{١٨٨}. وقد وُضعت كل هذه الكتب في مكتبة القصر^{١٨٩}، ويمكن العثور اليوم على معظم الكتب التي تعود إلى هذه المجموعات في مكتبة متحف قصر طوبقابي.

وفي سؤال وجهه المستشرق المشهور هلموت رتير إلى السيد شرف الدين يالتقيا، قائلاً: «كيف جمعتم كل هذه الكتب؟»، فرد عليه قائلاً: «بالسيف!»، مشيراً إلى ما عرضناه سابقاً. ومع الأسف، فإن بعض الباحثين الذين طرحوا ادعاءات تتعلق بنهب العثمانيين للمكتبات الوقفية قد استعملوا هذه الحكاية لتقوية ادعاءاتهم، دون إيراد بقية كلام شرف الدين يالتقيا الذي استكمل به رده، وجاء على النحو الآتي: «ولم يكن هذا أبداً هو الطريق الوحيد، بل إن أكثر هذه الكتب قد اشتراها محبو الكتب أو أهديت لهم»^{١٩٠}. وأضاف رتير أن أي دراسة تبحث في مصادر الكتب الموجودة في مكتبات إسطنبول -وهي دراسة لم تُنجز بعد- من شأنها أن تُقدم دليلاً على أن عدداً قليلاً جداً من الكتب الموجودة حتى الآن يعود إلى مكتبات أخرى كانت في العالم الإسلامي. وقد قدّم رتير عدة نماذج للتدليل على ما ذهب إليه^{١٩١}.

واحتلت الكتب التي أحضرها السفراء القادمون من الشرق -ولا سيما تلك التي قُدمت كهدايا- مكانة

186 Lâle Uluç: Türkmen Valiler Şirazlı Ustalar Osmanlı Okurlar. XVI. Yüzyıl Şiraz Elyazmaları, İstanbul, 2006, s. 477.

187 Barbara Fleming: "Memlûk Saray ve Garnizonlarında Edebî Faaliyetler", çev. Cen giz Tomar, Türk Kültürü İncelemeleri Dergisi, no. 12, İstanbul, 2005, s. 209: 220.

188 Walter Hinz: Uzun Hasan ve Şeyh Cüneyd, çev. Tevfik Bıyıklıoğlu, Ankara, 1948, s. 99.

١٨٩ في تلك المقالة الحديثة تفصيلاً عن الكتب الفارسية التي جُلبت إلى إسطنبول وطرق إحضارها. انظر:

Osman G. Özgüdenli: "İstanbul Kütüphanelerinde Bulunan Farsça Yazmaların Öyküsü: Bir Giriş, Ankara Üniversitesi Dil ve Tarih-Coğrafya Fakültesi Tarih Bölümü Tarih Araştırmaları Dergisi, c. 27, no. 43, Ankara 2008, s. 29, 30; 34:37.

190 Hellmut Ritter: "Autographs in Turkish Libraries", Oriens, c. VI/1, Leiden 1953, s. 65.

191 H. Ritter: a.g.m. s. 65, 66.



مهمة في تشكيل مجموعات الكتب في مكتبات إسطنبول؛ فالإلى جانب السفراء القادمين من عند الحكام الصفويين، رأينا أن بعض الأمراء ورجال الدولة الفارّين من هذه المنطقة (إيران)، والذي لجأوا إلى الدولة العثمانية، قد أحضروا معهم الكثير من الكتب القيمة كهدايا^{١٩٢}.

وإذا كان العثمانيون قد نهبوا المكتبات الوقفية، ونقلوا كتبها إلى إسطنبول، فمن المفترض أن نجد مئات من هذه الكتب في كثير من المكتبات اليوم. وما لم يُثبت ذلك، فإن الادّعاء بنهب العثمانيين للمكتبات الوقفية في العالم الإسلامي محض افتراء كبير.

ماذا حدث لمجموعات المكتبات الوقفية في المناطق العربية؟

شهدت مكتبات الوقف في المناطق العربية أكبر خسائرها في الفترة التي سبقت الدولة العثمانية. ومع الأسف، فإن عددًا كبيرًا من المكتبات في العالم الإسلامي -والتي كانت تضم ميراثًا ثقافيًا ثريًا للغاية- قد دُمّر على يد الصليبيين^{١٩٣}، والمغول^{١٩٤}، والبرابرة في صقلية، والملوك ورجال الدين الكاثوليك في إسبانيا^{١٩٥}، وبعض الحكام المسلمين بسبب الخلافات المذهبية^{١٩٦}. كما فقد قسم من الكتب بسبب الكوارث والآفات

١٩٢ كانت المخطوطات تحتل مكانة أيضًا بين الهدايا التي كانت تُقدّم بمناسبة التهنئة بجلوس السلاطين. وبحسب ما نقله سيد لقمان، فإن طوقات خان قد أرسل أكثر من ستين ديوانًا بالفارسية إلى جانب شاه نامه الفردوسي، وقدّمها إلى السلطان مراد الثالث، انظر:

LâLe Uluç: a. g.e., s. 482.

وللاطلاع تفصيلًا على ذلك النوع من الهدايا انظر:

LâLe Uluç: eser, s. 486: 503.

وللمؤلفة نفسها انظر:

LâLe Uluç: "Ottoman Book Collectors and Illustrated Sixteenth Century Shiraz Manuscripts", *Revue des Mondes Musulmans et de la Méditerranée* no. 87-88 (Aix-en-Provence 1999), s. 91: 96; Aynı müellif: "Vezir-i Azam Sinan Paşa'dan Gelen Kitabdır-sene 999", *Gelenek, Kimlik-Birleşim: Kültürel Kesimeşeler ve Sanat* (Prof. Dr. Günsel Renda'ya Armağan), Ankara, 2011, s. 245: 247.

وانظر أيضًا:

Ebulfez Rahimov: "Safevîlerin Türkiye'ye Hediye Gönderdiği Kitaplar", *Türk Kültürü*, c. XXXIII, no. 386 (Ankara 1995), s. 344: 352; Özgüdenli: a.g.m. s. 35, 36.

193 Olga Pinto: "The Libraries of the Arabs During the Time of Abbasids", *IC*, c. III/2 (1929), s. 237; Nina Jidejian: *Tripoli Through the Ages*, Beirut 1980, s. 48.

١٩٤ نقيب نقوي: سيري در كتبخانه هاي اسلامي، مشكات رقم ٢١، مشهد، ١٣٦٧هـ/ ١٩٨٩م، ص ١٥٨: ١٦٤.

195 Elmer D. Johnson: *A History of Libraries in the Western World*, New York, 1965, s. 95: 97; Stephan Roman: a.g.e., s. 192.

196 S. R. Mackensen: "Moslem Libraries and Sectarian Propoganda", *AJSL*, c. 51. (1934: 1935), s. 83: 113.



الطبيعية^{١٩٧}. ولم يصل إلينا من الفترة السابقة لتأسيس الدولة العثمانية^{١٩٨} إلا عدد قليل للغاية من إجمالي الكتب التي ذكرتها المصادر، والتي كانت في حدود عدة ملايين^{١٩٩}.

ومن المؤكد أن تجارة الكتب كانت من أهم أسباب فقدان الكتب الموجودة في المجموعات الوقفية والمجموعات الخاصة التي كانت موجودة في مدن مثل: القاهرة وحلب ودمشق، والتي كانت تُعد من أهم مراكز الثقافة الإسلامية. وقبل العثمانيين وبعدهم، انخرط المبشرون الأوروبيون ورجال العلم ومحبو الكتب والتجار والقناصل الأوروبيون في نشاط مكثف لجمع آلاف المخطوطات لصالح المكتبات في البلدان التي يتسبون إليها. وتمكن هؤلاء من نقل عدة آلاف من المخطوطات المتنوعة إلى بلادهم بهذه الطريقة، وحتى إسطنبول أصبحت ساحة لهذا النوع من الأنشطة^{٢٠٠}. ويُعتقد أن أعداد المخطوطات في أوروبا وأمريكا يتراوح بين ثمانين ألف ومائة ألف مخطوط^{٢٠١}. وكان خروج هذا العدد من المخطوطات إما نتيجة لهذا النوع من الأنشطة^{٢٠٢}، وإما نتيجة شرائها من أسواق الكتب ونقلها إلى الدول الأجنبية، ومثلما أوضحنا سابقاً، فإن الأجانب، في أثناء سعيهم إلى شراء الكتب، قد تلقوا دعماً كبيراً من السكان المحليين الذين أعماهم الطمع، ولم يُقدِّروا قيمة هذه المؤلفات^{٢٠٣}. وعلى خلاف إسطنبول، لم تكن العقوبات التي فرضتها مؤسسة الوقف كافية لحماية الكتب الموقوفة في مكتبات الأراضي العربية الأخرى^{٢٠٤}، وكما أوضحنا سابقاً، فإن الكتب الموقوفة الخاصة بهذه المكتبات كانت تُباع وتُشترى بحرية في الأسواق.

وفضلاً عن ذلك، نعلم أن بعض المجموعات قد نقلها أصحابها إلى الدول الغربية، وبيعت هناك. ففي عام ١٨٨٣م، حمل الحجازي أمين بن حسين الخولاني مجموعة غنية من المؤلفات النادرة إلى

١٩٧ يحيى محمود ساعاتي: الوقف وبنية المكتبات العربية، الرياض، ١٩٨٨م، ص ١٧٢: ١٧٤.

١٩٨ عبد الجبار عبد الرحمن: تسريب التراث العربي، مرجع سابق، ص ٥٦، ٥٧.

١٩٩ عز الدين بن زغبة: رحيل المخطوطات: الموت المصنوع بأيدينا وأيدي غيرنا، آفاق الثقافة والتراث، ج ١٦، رقم ٦٤، دبي، ٢٠٠٩م، ص ٤، ٥.

٢٠٠ للاطلاع على فعاليات الأجانب في هذا الموضوع، انظر:

İsmail E. Erünsal: *Osmanlılarda Sahaflık ve Sahaflar*, İstanbul 2013, s. 99: 108.

٢٠١ عبد الجبار عبد الرحمن: تسريب التراث العربي، مرجع سابق، ص ٥٠.

٢٠٢ جرَّب الأجانب طرقاً مشروعة وغير مشروعة للوصول إلى المؤلفات المهمة، وبمساعدة الشركاء المحليين الذين أعماهم الطمع والحرص استولوا على الكثير من كتب المكتبات الوقفية وأرسلوها إلى بلادهم.

٢٠٣ قدم عبد الجبار عبد الرحمن الكثير من النماذج في هذا الموضوع. انظر: عبد الجبار عبد الرحمن: تسريب التراث العربي، مرجع سابق، ٥٨: ٦٢.

204 Lawrence I. Conrad: "The Khalidi Library", Ottoman Jerusalem the Living City: 1517-1917, yay. haz. Sylvia Auld ve Robert Hillenbrand, London, 2000, s. 208.



هولندا، وباعها لدار نشر بريل Brill. وذهب قسم من هذه الكتب إلى مكتبة جامعة ليدن، وقسم آخر إلى مجموعة روبرت جارت Garrett في مكتبة جامعة برنستون^{٢٠٥}. وباع اللبناني مراد البارودي مكتبته الغنية إلى بعض المستشرقين وإلى مكتبة جامعة برنستون^{٢٠٦}. ومن المعلوم أن بيع الكتب للغربيين استمر حتى النصف الأول من القرن العشرين؛ فقد اشترت جميع المخطوطات القديمة ذات القيمة الفنية العالية الموجودة في مكتبة نيويورك العامة -أو معظمها- من بعض تجار الكتب في الدول الإسلامية بين عامي ١٩٠٠: ١٩٥٠م^{٢٠٧}.

ولعل أوجز توصيف لما أصاب المخطوطات في العالم العربي هو ما قدّمه الباحث السوري محمد ماهر حمادة حين قال: «إن ما أصاب العالم العربي من جهل وتفرق وجمود في الحياة العقلية، جعل أغلب الناس يُفردون في تراثهم المخطوط ولا يبالون إن تلف أو سُرق أو حُرق أو أخذ القنصل الفلاني أو المبشر الفلاني، بل وجدنا كثيرًا من الناس ساهموا كل المساهمة في عملية تسرب التراث المخطوط إلى ديار الغرب بوسائل قبيحة ولقاء دراهم معدودات»^{٢٠٨}.

205 Philip K. Hitti-Nabih Amin Faris-Butrus Abd-al-Malik: Descriptive Catalogue of the Garret Collection of Arabic Manuscripts in the Princeton University Library, Princeton 1938, s. III; Barbara Schmitz ve dğr.: Islamic Manuscripts in the New York Public Library, New York 1992, s. XVIII; Stephan Roman: a.g.e., s. 220.

206 Philip K. Hitti: a.g.e. s. III; Stephan Roman: a.g.e. s. 219, 220.

207 Donald F. Anderle-Robert Rainwater: "The Collection", Islamic Manuscripts in the New York Public Library, yay. haz. Barbara Schmitz, Oxford, 1992, s. XVII-XXI.

٢٠٨ محمد ماهر حمادة: رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب فكرًا ومادة، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٢٦٠. وقدم حمادة في كتابه هذا نماذج لا حصر لها لاستيلاء المكتبات في أوروبا وأمريكا على المؤلفات المخطوطة التي في العالم الإسلامي بأية طرق. انظر: المرجع السابق، ص ٢٨٥: ٣١٩.



الخاتمة:

شكلت بعض العبارات التي ذكرها ابن إياس مصدر الاتهام بأن العثمانيين قد نهبوا المكتبات الوقفية في المناطق التي فتحوها. وكما هو معلوم فإن ابن إياس الذي ينتسب إلى عائلة مملوكية أصيلة قد تعرض لانتقادات بسبب موقفه المعارض للعثمانيين. وقد انتبه إلى هذا الأمر أيضًا من رجعوا إلى كتابه وقبلوه على أنه أحد المصادر القيمة للفترة التي أعقبت العصر المملوكي. ولكن ابن إياس لم يقل إن سليم الأول -عند عودته من مصر- قد نقل حمولة مئات الجمال من الكتب، وإنما تحدث فقط عن النهب الذي أصاب القاهرة عقب دخول العثمانيين إليها، وعن أخذ بعض الوزراء في هذه الأثناء مخطوطات نفيسة من بعض المدارس.

ولم يتمكن الباحثون الذين طرحوا مثل هذه الادعاءات من تقديم دليل واحد يدعم ويؤيد ما ذكره ونقلوه عن ابن إياس، سوى ما وجدوه من كتب عربية في مكتبات إسطنبول. وقد طرحوا رواية مفادها أن العثمانيين قد نهبوا مكتبات الوقف في البلدان التي فتحوها، وذلك من خلال تحريف ما أورده وذكره ابن إياس. وكما نعلم، فإن الكتب -بشكل عام- في المكتبات الوقفية كانت تحمل قيد الوقف أو ختمه. وعلى هذا، كان يجب أن نجد هذا النوع من القيود على مئات الآلاف من الكتب التي قيل إن العثمانيين قد أحضروها إلى إسطنبول. ولكن ما أمكن تحديده لم يتجاوز بضعة كتب كان عليها ختم الوقف أو قيده، الخاص بمكتبات المدارس التي كانت موجودة فيها في العالم العربي. وما لم نصل إلى تلك الآلاف من الكتب التي تحمل قيد الوقف أو ختمه في مكتبات إسطنبول، فإن مثل هذه الادعاءات لن تعدو أن تكون محض افتراء وكذب.

لقد كان العثمانيون شديدي الحرص على الكتب الموقوفة، ويظهر ذلك في ممارساتهم عبر القرون. وكما لم ينقل العثمانيون أي مكتبة وقفية من البلدان التي فتحوها، فإنهم قد أسسوا مكتبات ضمت مجموعات غنية في كثير من تلك البلدان. وبحسب ما لدينا من الوثائق، فإن هذه المجموعات الغنية قد أرسلت بكاملها تقريبًا من إسطنبول. ومن أجل إظهار حرص العثمانيين على الكتب الموقوفة، يجب الإشارة إلى ما أظهره من عناية وحرص على حماية مجموعات المكتبات الوقفية التي كانت في إسطنبول وصيانتها. ففي الحصر والتعداد الذي أجراه العثمانيون لهذه المكتبات، تبين أن ما فقدته تلك المكتبات لم يتعد بضعة كتب خلال فترة امتدت قرنًا من الزمان. ومن ناحية أخرى، فقد رأينا أن مكتبات الوقف في العالم العربي قد تعرضت لخسائر كبيرة خلال ثلاثين أو أربعين عامًا، حتى إن بعض تلك المكتبات قد فقدت تمامًا، وأظهر هذا الفقد تساهل السكان في تلك المناطق في التعامل مع مؤسسة الوقف.

والواقع أن جميع الكتب التي جلبها العثمانيون إلى إسطنبول كانت من مقتنيات مكتبات خاصة امتلكها حكام وسلاطين تلك البلاد التي تعرضت للهزيمة على يد العثمانيين. ولأن العثمانيين اعتبروا هذه المكتبات بمثابة غنائم لهم، فلم يكن هناك أي مانع شرعي من إحضار تلك الكتب إلى إسطنبول. وقد جلب العثمانيون



المخطوطات التي كانت موجودة في الروضة الشريفة في المدينة المنورة إلى إسطنبول لحمايتها من النهب، وذلك قبل استيلاء الوهابيين على المدينة، ووضعت هذه الكتب في مكتبة القصر.

وفضلاً عن ذلك، فإن أفراد الطبقة العلمية قاموا برحلات إلى مراكز العلم التقليدية، واشتروا منها الكثير من الكتب؛ فقد كانت هناك أسواق رائجة للكتب في مدن مثل القاهرة وحلب ودمشق. كما أن بعض رجال الدولة العاملين في تلك المناطق قد أثروا مكتباتهم بالكتب التي اشتروها على نطاق واسع، وحولوا قسماً من هذه المجموعات إلى مكتبات وقفية بعد ذلك.

إلى جانب المصائب الطبيعية مثل: الحرائق، والسيول، واستيلاء الأجانب على مكتبات الوقف الثرية في مناطق العالم الإسلامي المختلفة، فإن تلك المكتبات قد تعرضت لخسائر كبيرة بسبب إهمال الموظفين العاملين في هذه المكتبات وتسيبهم، وما أبداه سكان المدن التي كانت توجد فيها تلك المكتبات من عدم اهتمام وإهمال، خاصة في الفترات الأخيرة التي ضعفت فيها السلطة الحاكمة العثمانية. وتوجد روايات كثيرة تدور حول بيع الكتب الموقوفة وشرائها بشكل مريع في هذه المناطق. وقد استفاد الغربيون من تساهل هؤلاء السكان، وقاموا بشراء مئات الآلاف من الكتب القيمة التي استطاعوا الوصول إليها، ودفعوا فيها مبالغ زهيدة، ونقلوها إلى بلادهم. ولهذا السبب، فمن المعقول والمنطقي أن نبحت عن الكتب الموقوفة التي كانت في المناطق العربية في مكتبات أوروبا وأمريكا، بدلاً من البحث عنها في مكتبات إسطنبول.

ومع استمرار جهود ومساعي الغربيين لشراء الكتب من هذه المناطق حتى وقتنا الحاضر، فإن التجار المشتغلين بتجارة الكتب من أهل هذه البلدان العربية ما زالوا يحملون آلاف الكتب إلى الدول الغربية ويبيعونها هناك.

وفي الفترات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية أمكن إنقاذ قسم مهم من الكتب الموقوفة نتيجة المساعي والجهود التي بذلها الولاة العثمانيون في جمع مكتبات الوقف تحت سقف واحد في مدن مثل حلب ودمشق. وشكلت هذه الكتب أساس المكتبات القومية التي تأسست في تلك المناطق في فترات لاحقة.



قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الوثائق العثمانية:

- (1) Ayniyan 875 s. 36.
- (2) Belediye Ktp. Mc. O. 116/l, s. 6b-8b.
- (3) BOA, EV, 32721.
- (4) BOA, Mühimme 64, s. II.
- (5) BOA. A. AMD. 1246/85.
- (6) BOA. A. AMD. 1249 / 28.
- (7) BOA. Ayniyat 873. s. 126.
- (8) BOA. Bağdat Tapu Defteri 386, s. 117, 118, 124: 127, 161.
- (9) BOA. Evkaf 9591 ve 9489.
- (10) BOA. H. H. 27 457-C.
- (11) BOA. Hatt-ı Hümayun 26 913.
- (12) BOA. HMH. 6737/1.
- (13) BOA. İrade Mesail- iMühimme 572, 59.
- (14) BOA. İrade. Şura-yı Devlet 5057.
- (15) BOA. MF. KTU. 5/98.
- (16) BOA. MF. KTU. Dosya 3, Evrâk 45.
- (17) BOA. MFV. KTU. Dosya 3, Evrak 45.
- (18) BOA. MFV. KTU. Dosya 4, evrak 72 ve 79.
- (19) BOA. Mühimme 55, s. 48.
- (20) BOA. Mühimme 64, s. 11.
- (21) BOA. Mühimme Defteri 110, s. 209.
- (22) BOA. Mühimme Defteri 26, s. 220.
- (23) BOA. Mühimme Defteri 62, s. 276.
- (24) BOA. Mühimme-i Mısır 13, s. 41, 42, 47, 54.
- (25) BOA. Mühimme-i Mısır 13, s. 54.
- (26) BOA. Mühimme-i Mısır 13, s. 82.
- (27) BOA. Mühimme-i Mısır 13, s. 82.
- (28) BOA. Y. PRK. Um. s. 16.
- (29) Dosya 2, Evrâk 5, 6, 11, 13, 14, 15, 18, 22, 23, 24.



- (30) Dosya 2, Evrak 5, 6, 11, 13, 14, 18, 22.
 (31) Evkaf 12, 420.
 (32) Evkaf-ı Hümayun Müfettişliği 213, s. 15a-b.
 (33) KA. 1500. s. 500.
 (34) KA. 330. s. 906.
 (35) ŞS Evkaf. Hümayun 629, s. 117b-120a.
 (36) ŞS. Mülğa Beledi Kassamlığı.¹
 (37) ŞS. Rumeli Sadaret. s. 9.
 (38) Tapu-Kadastro Arşivi 1135 (Karaman Evkaf Defteri), s. 8: 10.
 (39) Tapu-Kadastro Arşivi Defter no. 1134, s. 46b-50b.
 (40) Tapu-Kadastro Arşivi, 1123 Tarihli Tapu-Tahrir Defteri no. 1135, s. 11.
 (41) Tapu-Kadastro Arşivi, 906 Tarihli Tapu-Tahrir Defteri no. 1126, s. 47b-48a.
 (42) Tapu-Kadastro Arşivi, Konya Vakıf Defteri 564, s. 4: 6.
 (43) Tapu-Kadastro Arşivi, Tapu-Tahrir Defteri no. 1126, s. 47b-48a.
 (44) UGMA. 743. s. 97: 109.
 (45) VGMA Sultan Mecid Ahkam, s. 997: 999.
 (46) VGMA. 638, s. 141, 142.

ثانيًا: العربية:

- (٤٧) إبراهيم رفعت: مرآت الحرمين، القاهرة، ١٩٢٥ م.
 (٤٨) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ج ٥، القاهرة، ١٤٠٤ هـ/
 ١٩٨٤ م.
 (٤٩) الأزهر تاريخه وتطوره، القاهرة، ١٤٠٣ هـ.
 (٥٠) أيمن فؤاد سيد: الكتاب العرب المخطوط وعلم المخطوطات، القاهرة، ج ٢، ١٩٩٧ م.
 (٥١) أيمن فؤاد سيد: انتقال المخطوطات العربية إلى تركيا وأثره في توطيد الصبغة الإسلامية للخلافة
 العثمانية»، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، إعداد: صالح سعداوي، تقديم
 أكمل الدين إحسان، إسطنبول، ٢٠٠٠ م.
 (٥٢) أيمن فؤاد سيد: دار الكتب المصرية: تاريخها وتطورها، القاهرة، ١٩٩٦ م.
 (٥٣) حمادي علي محمد التونسي: المكتبات العامة بالمدينة المنورة ماضيها وحاضرها، رسالة ماجستير
 غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ١٩٨١ م.
 (٥٤) حمد بن عبد الله العنقري: مكتبات الدولة السعودية الأولى المخطوطة، دراسة تحليلية لعوامل انتقالها
 واندثارها بعد سقوط الدرعية، الرياض، ٢٠٠٩ م.
 (٥٥) خالد محسن حسن الجبري: الهيئة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، لندن، ٢٠٠٥ م.



- (٥٦) سما زكي المحاسني: دار الكتب الوطنية الظاهرية في دمشق، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، ج ٣/٣، لندن، ١٩٨٣ م.
- (٥٧) سهيل صابان: «مقتنيات الحجرة النبوية الشريفة بموجب تقرير عثماني عام ١٣٢٦هـ»، مجلة بحوث ودراسات المدينة المنورة ج ١، المدينة، ٢٠٠٢ م.
- (٥٨) سهيل صابان: الأمانات المنقولة من الحجرة النبوية إلى إسطنبول، مجلة مركز البحوث ودراسات المدينة المنورة، ج ٢، المدينة ٢٠٠٢ م.
- (٥٩) سهيل ملاذني: المكتبات في حلب، عاديات حلب، ج ٨، ٩، حلب، ١٩٩٨ م.
- (٦٠) السيد السيد النشار: تاريخ المكتبات في مصر العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٣ م.
- (٦١) السيد السيد النشار: دراسات في تاريخ الكتب والمكتبات، دار الثقافة العلمية، القاهرة، (دون تاريخ).
- (٦٢) شعبان عبد العزيز خليفة: أول لائحة لدار الكتب المصرية، صفحة مجهولة في تاريخ المكتبة العربية، مجلة المكتبات والمعلومات العربية العدد ٤، القاهرة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م.
- (٦٣) شكيب أرسلان: مكتبات المدينة المنورة، مجلة المجمع العلمي العربي، ج ٢٥، دمشق، ١٩٥٠ م.
- (٦٤) شهاب الدين أبي ثناء محمود بن عبد الله الألوسي: عارف حكمت حياته ومآثره، أعده للنشر: محمد العيد الخطراوي، بيروت، ١٩٨٣ م.
- (٦٥) طاشكوبري زاده: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تحقيق: د. أحمد صبحي الفرات، منشورات كلية الآداب، جامعة إسطنبول، ١٩٨٥ م.
- (٦٦) طه الولي: المساجد في الإسلام، بيروت، ١٩٨٨ م.
- (٦٧) عبد الجبار عبد الرحمن: تسريب التراث العربي المخطوط إلى المكتبات الأوروبية والأمريكية، آفاق الثقافة والتراث، ج ٨ / ٣١، دبي، ٢٠٠٠ م.
- (٦٨) عبد الجليل حسن عبد المهدي: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، عمان، ١٩٨٠ م.
- (٦٩) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في تراجم الأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ج ١، القاهرة، ١٩٩٨ م.
- (٧٠) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في تراجم الأخبار، ج ٣، أعده للنشر: توماس فيليب، وموشيه بيرلمان، شتوتجارت، ١٩٩٤ م.
- (٧١) عبد القادر بدران: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، دمشق، ١٩٨٦ م.
- (٧٢) عبد اللطيف إبراهيم: المكتبات المملوكية، القاهرة، ١٩٦٢ م.
- (٧٣) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات في الكتب والمخطوطات الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٢ م.
- (٧٤) عبد اللطيف عبد الله بن دهيش: مكتبات المدينة المنورة في العهد العثماني، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ج ٣/٣، مكة، ١٣٩٧: ١٣٩٨ هـ.
- (٧٥) عبد الله عبد الجبار: التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، القاهرة، ١٩٥٩ م.
- (٧٦) عز الدين بن زغبة: رحيل المخطوطات، الموت المصنوع بأيدينا وأيدي غيرنا، آفاق الثقافة والتراث، ج ١٦، رقم ٦٤، دبي، ٢٠٠٩ م.



- (٧٧) فؤاد سيد: نسان قديمان في إعاره الكتب، مجلة معهد المحفوظات العربية، ج ٤، القاهرة ١٩٥٨ م.
- (٧٨) فيليب دي طرازي: خزائن الكتب في الخافقين، ج ١، بيروت، ١٩٤٧ م.
- (٧٩) قطب الدين الحنفي: تاريخ القطبي، مكة، ١٩٥٠ م.
- (٨٠) قطب الدين النهروالي: الإعلام بأعلام البيت الحرام، إعداد: ونسفيلد، جوتنجن، ١٢٧٤ هـ.
- (٨١) كامل البالي الحلب الشهير بالغزى: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج ١، حلب، ١٩٩١ م.
- (٨٢) محمد أبي سرور البكري الصديقي: نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان، تهامه، سالم أبو جابر، أكاديمية القاسمي، ٢٠١٢ م.
- (٨٣) محمد أسعد طلاس: المخطوطات وخزائنها في حلب، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج ١، القاهرة، ١٩٥٥ م.
- (٨٤) محمد بسام العش: دمشق بين الماضي والحاضر، دمشق، ٢٠٠٦ م.
- (٨٥) محمد بن عبد الله باجودة: نشر القلم في تاريخ مكتبة الحرم، الرياض، ٢٠٠٢ م.
- (٨٦) محمد حسين زيدان: «الوثائق تتكلم» الدارة، المجلد الأول، الرياض، ١٩٧٥ م.
- (٨٧) محمد راغب الطباخ: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج ٦، حلب، ١٩٢٣ م.
- (٨٨) محمد راغب الطباخ: دار الكتب في حلب قديماً وحديثاً، مجلة المجمع العلمي العربي، ج ١٥، ٧، دمشق، ١٩٣٧ م.
- (٨٩) محمد علي فهم بيومي: مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني، ٩٢٣: ١٢٢٠ هـ / ١٥١٧: ١٨٠٥ م، القاهرة، ٢٠٠١ م.
- (٩٠) محمد كرد علي: الكتب والمكاتب في الشام، أقدم الخزائن وأنفس الكتب، المقتطف ٧٤ / ٥، بيروت، ١٩٢٩ م.
- (٩١) محمد كرد علي: خطط الشام، ج ٦، دمشق، ١٩٢٨ م.
- (٩٢) محمد كرد علي: مصائب الكتب والمكاتب في الشام، المقتطف، ٧٤ / ٤، بيروت، ١٩٢٩ م.
- (٩٣) محمد لبيب البتانوني: الرحالة الحجازية، القاهرة، ١٣٢٩ هـ.
- (٩٤) محمد ماهر حمادة: رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب فكراً ومادة، بيروت، ١٩٩٢ م.
- (٩٥) محمد ماهر حمادة: رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب فكراً ومادة، بيروت، ١٩٩٢ م.
- (٩٦) محمد مطيع حافظ: المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها أبي عمر حمد من أحمد المقدسي الصالح، دمشق، ٢٠٠٥ م.
- (٩٧) محمود فاخوري: المكتبات في حلب من العصر العثماني إلى اليوم، عاديات حلب، ج ٨، ٩، حلب، ١٩٩٨ م.
- (٩٨) محمود محمد الطناحي، المقالات، القسم الأول، بيروت، ٢٠٠٣ م.
- (٩٩) ناصر عبد الله سلطان البركاتي: «التطور التاريخي لمكتبة الحرم المكي الشريف» العصور، ج ٢ / ٢، الرياض، ١٩٨٧ م.
- (١٠٠) ناصر عبد الله عثمان: قبل أن يأتي الغرب، الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر، القاهرة، ٢٠٠٦ م.



- (١٠١) يحيى محمد ساعاتي: وضعية المخطوطات في المملكة العربية السعودية إلى عام ١٤٠٨هـ، الرياض، ١٩٩٣م.
- (١٠٢) يحيى محمود ساعاتي: الوقف وبنية المكتبات العربية، الرياض، ١٩٨٨م.
- (١٠٣) يحيى وهيب الجبوري: الكتاب في الحضارة الإسلامية، بيروت، ١٩٩٨م.
- (١٠٤) ثالثاً: العثمانية:
- (١٠٥) أيوب صبري باشا: مرآت الحرمين، ج ٢، إسطنبول، ١٣٠٤هـ.
- (١٠٦) حجاز سالنامه سي، ١٣٠٥هـ.
- (١٠٧) رضوان نافذ وإسماعيل حقي أوزون چارچلي أوغلو: سيواس شهرى، أنقره، ١٩٢٨م.
- (١٠٨) سعد الدين خواجه: تاج التواريخ، جلد ثاني، إسطنبول، ١٢٧٩هـ.
- (١٠٩) مصطفى عاشق أفندي: كتاب التعطير (مخطوط)، ج ٣.

رابعاً: التركية:

- (110) Ahmet Temir: Kırşehir Emiri Cacaoğlu Nur el-Din'in 1272 Tarihli Ara-pça-Moğolca Vakfiyesi, Ankara, 1959.
- (111) Aptullah Kuran: Anadolu Medreseleri, c. 1, Ankara, 1969.
- (112) Ara Altun: "Kütahya'nın Türk Devri Mimarisi, Bir Deneme", Kütahya, İstanbul, 1981-1982.
- (113) Barbara Fleming: "Memlûk Saray ve Garnizonlarında Edebî Faaliyetler", çev. Cen giz Tomar, Türk Kültürü İncelemeleri Dergisi, no. 12, İstanbul, 2005.
- (114) Barbara Fleming: "Memlûk Saray ve Garnizonlarında Edebî Faaliyetler", çev. Cengiz Tomar, Türk Kültürü İncelemeleri Dergisi, no. 12, İstanbul, 2005.
- (115) Bilal Kemikli: "Şeyhülislam Arif Hikmet Beyefendi'nin Vakfiyesi ve Medine-i Münevvere'de Tesis Ettiği Kütüphanesi", Revak, no. 5, Sivas, 1994.
- (116) Böküzâde Süleyman Sâmî: Kuruluşundan Günümüze Isparta Tarihi, İstanbul, 1983.
- (117) Cornell H. Fleischer: Tarihçi Mustafa Âli, Bir Osmanlı Aydın ve Bürokrati, çev. Ayla Ortaç, İstanbul, 1996.
- (118) Dursun Gümüsoğlu: Tâcü'l-ârifîn Seyyid Ebu'l-Vefâ Menakıbnâmesi, İstanbul, 2006,
- (119) Ebulfaz Rahimov: "Safevîlerin Türkiye'ye Hediye Gönderdiği Kitaplar", Türk Kültürü, c. XXXIII, no. 386, Ankara, 1995.
- (120) Evliya Çelebi Seyahatnamesi: yay. haz. Yücel Dağlı-Seyit Ali Kahraman-Robert Dankoff, c. VII, İstanbul, 2003.



- (121) Fâzıl Çifçi: Kastamonu Câmileri-Türebeleri ve Diğer Tarihi Eserler, Ankara, 1995.
- (122) Feridun M. Emecen: Yavuz Sultan Selim, İstanbul, 2010.
- (123) Feridun Nafiz Uzluk: Fâtih Devrinde Karaman Eyaleti Vakıfları Fihristi, Ankara, 1958.
- (124) Fikret Sarıcaoğlu: "Kâtib Çelebi'nin Otobiyografileri", İÜ. Edebiyat Fakültesi Tarih Dergisi, no. 37, İstanbul, 2001-2002.
- (125) Hakan Anameriç: "Osmanlılarda Kütüphane Kültürü ve Bilimsel Yaşama Etkisi", VI. Uluslararası Türk Kültürü Kongresi Bildirileri, c. II, yay. haz. Şebnem Ercebeci, Ankara, 2009.
- (126) Halil İnalcık: "Osmanlı İdare, Sosyal ve Ekonomik Tarihiyle İlgili Belgeler: Bursa Kadı Sicillerinden Seçmeler", Türk Tarih Kurumu Belgeler, c. X, no. 14, Ankara, 1981.
- (127) Hilmi Bayraktar: XIX. Yüzyılda Halep Eyaleti'nin İktisadî Vaziyeti, Elazığ, 2004.
- (128) Hüseyin Rahmi Ünal: Birgi (Tarihi, Tarihî Coğrafyası ve Türk Dönemi Anıtları), Ankara, 2001.
- (129) İsmail E. Erünsal: Osmanlı Vakıf Kütüphaneleri, Ankara, 2008.
- (130) İsmail E. Erünsal: Osmanlılarda Sahafılık ve Sahaflar, İstanbul, 2013.
- (131) İsmail Hakkı Uzunçarşılı: Anadolu Beylikleri, Ankara, 1969.
- (132) İsmet Kayaoğlu: "Candaroglu İsmail Bey Vakfiyesi", X. Türk Tarih Kongresi, Bildiriler, c. III, Ankara, 1991.
- (133) İstanbul Mektupları: haz. Nuri Sağlam, İstanbul, 2001.
- (134) Kemal Yavuz: "XIII-XVI. Asır Dil Yedigârlarının Anadolu Sahasında Yazılış Sebepleri ve Bu Devir Müelliflerinin Türkçe Hakkındaki Görüşleri", Türk Dünyası Araştırmaları, no. 27, İstanbul, 1983.
- (135) Lâle Uluç: Türkmen Valiler Şirazlı Ustalar Osmanlı Okurlar. XVI. Yüzyıl Şiraz Elyazmaları, İstanbul, 2006.
- (136) Lâle Uluç: Vezir-i Azam Sinan Paşa'dan Gelen Kitabdır-sene 999", Gelenek, Kimlik Birleşim: Kültürel Kesismeşeler ve Sanat (Prof. Dr. Günsel Renda'ya Armağan), Ankara, 2011.
- (137) M. Akif Erdoğan: "Murad Çelebi Defteri: 1483 Yılında Karaman Vilâyetinde Vakıflar I", Tarih İncelemeleri Dergisi, c. XVIII, no. 1, 2003.
- (138) M. Can: "Selçuklular Devri Konya Kütüphaneleri Tarihçesi", Selçuk Üniversitesi



si Selçuk Dergisi, c. II/l, 1986.

(139) M. Cunbur: "Selçuklu Devri Konya Kütüphanesi", Selçuk Üniversitesi, Selçuk Dergisi, c. II/l, 1986.

(140) Mikail Bayram: "Anadolu Selçukluları Zamanında Konya'da Dinî ve Fikrî Hareketler", Dünden Bugüne Konya'nın Kültür Birikimi ve Selçuk Üniversitesi, Konya, 1999.

(141) Mustafa Çetin Varlık: Germiyan Oğulları Tarihi (1300-1429), Ankara, 1974.

(142) Mustafa L. Bilge: "Ârif Hikmet Kütüphanesi", DİA. III, İstanbul, 1991.

(143) Mustafa L. Bilge: Şâir Şeyhülislâm Ârif Hikmet Beyefendi, Hayâtı-Eserleri-Şiirleri, Ankara, 2003.

(144) Osman G. Özgüdenli: "İstanbul Kütüphanelerinde Bulunan Farsça Yazmaların Öyküsü: Bir Giriş", Ankara Üniversitesi Dil ve Tarih-Coğrafya Fakültesi Tarih Bölümü Tarih Araştırmaları Dergisi, c. 27, no. 43, Ankara, 2008.

(145) Osman G. Özgüdenli: "Şeyh Safîu'd-dîn Erdebilî'nin Türbesinde Bulunan Kitaplar", Marmara Üniversitesi Türklük Araştırmaları Dergisi, no. 10, İstanbul, 2001.

(146) Osman Turan: "Şemseddin Altun-Aba, Vakfiyyesi ve Hayatı", Türk Tarih Kurumu Belleten, c. XI, no. 42, 1947.

(147) Osman Uysal: Germiyanogulları Beyliğinin Mimarî Eserleri, Ankara, 2006.

(148) Özer Soysal: Türk Kütüphaneciliği, c. IV, Ankara, 1999.

(149) S. Ünver: "Anadolu Selçukluları Zamanında Umumi ve Hususi Kütüphaneler", Atatürk Konferansları II, Ankara, 1970.

(150) S. Ünver: Fâtih Külliyesi ve Zamanı İlim Hayatı, İstanbul, 1946.

(151) Sadi S. Kucur: Sivas Tokat ve Amasya'da Selçuklu ve Beylikler Devri Vakıfları-Vakfiyelere Göre- Basılmamış Doktora Tezi, Marmara Üniversitesi, 1993.

(152) Sadık Karaöz: Manisa İli Kütüphaneleri, Manisa, 1974.

(153) Şükrü Yenal: "Topkapı Sarayı Müzesi Enderûn Kitaplığı (Ahmet III Kitaplığı)", Güzel Sanatlar 6, İstanbul, 1949.

(154) Walter Hinz: Uzun Hasan ve Şeyh Cüneyd, çev. Tefik Bıyıklıoğlu, Ankara, 1948.

(155) Yaşar Yücel: XIII-XV. Yüzyıllarda Kuzey-Batı Anadolu Tarihi, Çoban-Oğulları Beyliği-Candar-Oğulları Beyliği, Ankara, 1988.

خامساً: الأجنبية:

(156) Abbas Saleh Tashkandy: A Descriptive Catalogue of the Historical Collection of



the Scientific Manuscripts at the Library of 'Arif Hikmat in Madine, Saudi Arabia, basilmamış doktora tezi, University of Pittsburgh, 1974.

(157) Abdul Latif Abdullah bin Dohaish: "Libraries of Madina-al-Munawwara (During the Ottoman Period), Pakistan Library Bulletin, c. 11/1-2, Karachi, 1980.

(158) Agathange de Vendome: Correspondance de Peiresc avec plusieurs Missionnaires et Religieux de l'Ordre Capucins, Recueillie et publiée par Le P. Apollinaire de Valence, Paris, 1891.

(159) André Raymond: Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe siècle, c. I, Damas, 1973.

(160) Avihai Shviti: "The Arabic Manuscripts at the University of Cambridge and Position of the Cairo Genizah Documents among other Collections", From Codicology to Technology, Islamic Manuscripts and their Place in Scholarship, yay. haz. Stefanie Brinkman- Beate Wiesmüller, Berlin, 2009.

(161) Barbara Schmitz ve dğr.: Islamic Manuscripts in the New York Public Library, New York, 1992.

(162) Boris Liebrecht: The Library of Ahmad al-Rabbat. Books and their Audience in 12th to 13th/18th to 19th Century Syria", Marginal Perspectives on Early Modern Ottoman Culture: Missionaries, Travellers, Booksellers, yay. haz. Ralf Elger- Ute Pietruschka, Halle (Saale), 2013.

(163) Carl F. Petry: The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages, Princeton, 1981.

(164) Christine Laidlaw: The British in The Levant, Trade and Perceptions of the Ottoman Empire in the Eighteenth Century, London, 2010.

(165) Donald F. Anderle-Robert Rainwater: "The Collection", Islamic Manuscripts in the New York Public Library, yay. haz. Barbara Schmitz, Oxford, 1992.

(166) Edward William Lane: An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, written in Egypt During the Years 1833, -34, and -35, Partly from Notes Made During a Former Visit to that Country in the Years 1825. -26, -27, and -28, London, 1860.

(167) Elmer D. Johnson: A History of Libraries in the Western World, New York, 1965.

(168) Francis Richard: "Lecteurs ottomans de manuscrits persans au XVIIIe siècle", Revue des Mondes Musulmans et de la Méditerranée, no. 87-88, Aix-en-Provence,



1999.

(169) Gabriel Baer: *Agyptian Guilds in Modern Times*, Jerusalem, 1964.

(170) Ghulam Ali Allana: "Development of Libraries During the Fatimid Caliphate in Egypt", *Sind Quarterly*, c. 14/4, 1986.

(171) Hellmut Ritter: "Autographs in Turkish Libraries", *Oriens*, c. VI/1, Leiden, 1953.

(172) Jacques Dallaway: *Constantinople Ancienne et Modern, et Description des Côtes et Isles de l'Archipel et de la Troade*, traduit de l'Anglais par André Morellet, tome premier, Paris, 1797.

(173) LâLe Uluç: *Ottoman Book Collectors and Illustrated Sixteenth Century Shiraz Manuscripts*, *Revue des Mondes Musulmans et de la Méditerranée* no. 87-88, Aix-en-Provence, 1999.

(174) Lawrence I. Conrad: "The Khalidî Library", *Ottoman Jerusalem the Living City: 1517- 1917*, yayıma hazırlayanlar: Sylvia Auld ve Robert Hillenbrand, London, 2000.

(175) Leonard Twells: *The Theological Works of the Learned Dr. Pocock, to which is prefixed An Account of his life and Writings never printed*, c. I, London, 1740.

(176) M. C-F. Volney: *Travels Through Syria and Egypt in the Years 1783, 1784, and 1785*, c. II, London, 1788.

(177) Maróth, Miklós: "The Library of Sultan Bayezid II", *Irano-Turkic Cultural Contacts*, yayına haz: Eva M. Jeremiàs (Piliscsaba, 2003).

(178) Martin Van Bruinessen ve Hendrik Boeschoten: *Evliya Çelebi in Diyarbekir*, Leiden, 1988.

(179) Nelly Hanna: "Cultural life in Mamluk households (late Ottoman period)", *The Mamluks in Egyptian politics and socety*, yay. haz. Thomas Philip-Ulrich Haarman, Cambridge, 1998.

(180) Nelly Hanna: *In Praise of Books, A Cultural History of Cairo's Middle Class, Sixteenth to the Eighteenth Century*, Syracuse, New York, 2003.

(181) Nina Jidejian: *Tripoli Through the Ages*, Beirut, 1980.

(182) Olga Pinto: "The Libraries of the Arabs During the Time of Abbasids", *IC*, c. III/2, 1929.

(183) Otto Spies: "Die Bibliotheken des Hidschas", *ZDMG*. 90, 1936.

(184) P. M. Holt: "The Study of Arabic Historians in Seventeenth Century England: The Background and the Work of Edward Pococke", *BSOAS*, c. XIX/3, London, 1957.



- (185) Philip K. Hitti-Nabih Amin Faris-Butrus Abd-al-Malik: Descriptive Catalogue of the Garret Collection of Arabic Manuscripts in the Princeton University Library, Princeton, 1938.
- (186) Pierre A. MacKay: "The Manuscripts of the Seyahatnâme of Evliya Çelebi, Part I: the Archetype", Der Islam, c. LII/2, Berlin, 1975.
- (187) Reem Meshal: "Antagonistic Sharî'as and the Construction of Orthodoxy in Sixteenth- Century Ottoman Cairo", Journal of Islamic Studies, c. 21/2, Oxford, 2010.
- (188) Richard F. Burton: Personal Narrative of a Pilgrimage to el-Medinah and Meccah, c. I, London, 1855.
- (189) S. R. Mackensen: "Moslem Libraries and Sectarian Propoganda", AJSL, c. 51. (1934-1935).
- (190) Stephan Roman: The Development of Islamic Library Collections in Western Europe and North America, London, 1990.
- (191) Susan Jane Staffa: Conquest and Fusion: The Social Evolution of Cairo, A. D. 642-1850, Leiden, 1977.
- (192) Timothy Jude Fitzgerald: Ottoman Methods of Conquest: Legal Imperialism and the City of Aleppo 1480-1570, Yayınlanmamış doktora tezi, Harvard Üniversitesi, 2009.
- (193) Turcksche boucken: The Oriental Collection of Levinus Warner, Dutch diplomat in seventeenth-century Istanbul, yay. haz. Arnoud Vrolijk-Jan Schmidt-Karin Scheper, Leiden, 2013.

سادسًا: الفارسية:

- (١٩٤) أريج أفشار: فهرست كتابخانه صدر الدين القونوي، تحقیقات إسلامی، مجلد ١٠، رقم ١-٢، تهران ١٣٧٤هـ / ١٩٩٦م.
- (١٩٥) نقيب نقوي: سيري در كتبخانه هاي إسلامي، مشكات رقم ٢١، مشهد، ١٣٦٧هـ / ١٩٨٩م.

عن

صادر عام ٢٠٢٦ عن مركز أركان للدراسات والأبحاث والنشر
الآراء الواردة بالدراسة تعبر عن وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن
وجهة نظر المركز، ويمنع نقل هذه الدراسة أو نسخها أو ترجمتها أو أي جزء
منها إلا بإذن مسبق من المركز
info@arkansrp.com



أركان للدراسات والأبحاث والنشر

Arkan for Studies Research and Publishing